« لامية العـــرب وشعر الصعاليك »

* دراسة أدبية تحليليه نقدية *

بقـــلم

دكتور / عبد الله حسين على سليمان

المدرس بكلية الدراسات الاسلاميه والعربية

بنات ـ اسكندرية

تقـــديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على صفوة خلقه ، وخاتم رسله ، محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون .

وبعـــد

فمما لا شك فيه أن تراثنا الأدبى حافل وغنى بما يثير ويمتع ويروع ويعجب ، ويبرز بجلاء ووضوح عظمة هذا التراث ويكشف عن أصالته ، ونفاسة معدنه ، وصفاء جوهره وجليل قدره ورفعة شأنه مما يؤكد بحق أنه تراث جدير بأن تزهو به أمة العرب وتعلو هاماتها فى العالمين .

وعلى طريق تراثنا الأدبى العربى الحافل معالم وضاءة تستثير المشاعر وتأخذ بمجامع القلوب وتستحوذ على الألباب فنا وإبداعا ، وإثارة وإقناعا ، وإحسانا وتجويدا ، وبراعة وتجديدا ، وأصالة وصدقا ، وبقاء وخلودا .

من هذه المعالم الوضاءة التى حاول كثيرون إثارة الشكوك فيها والطعن عليها والنيل منها أدبنا العربى الجاهلى الذى كان ديوان حكمة ، وقانون أمة ، ومشرع حضارة ، ومعين ثقافة ، وقد بلغ من النضج الفكرى ، والسمو الوجدانى ، والمستوى الرفيع مبلغا قل أن ترى مثله عند شعوب أخرى فى القديم والحديث . ففى الأدب الجاهلى حياة وقوة ، وفيه قدرة على الاستمرار والبقاء ومغالبة العصور . . وليس من قبيل المصادفة أن ترى الشعر الجاهلى يتردد على الألسنة ويجرى على أسلات الأقلام ويسطر فى الكتب والصحف

بعد هذه القرون الطويلة التي مرت عليه وهو راسخ كالطود شامخ كالجبل الأشم متدفق كالنهر الفياض زاخر كالبحر الخضم ، متألق كالشمس الساطعة ، وضاء كالبدر المنير ، وفى الأدب الجاهلى معالم وضاءة يزهو بها ويتألق ، ويسمو ويتفوق ، ويحظى بالمنزلة الرفيعة والقدر الكبير ، ومن هذه المعالم الوضاءة فى أدبنا العربى الجاهلى ما يزخر به من شعر الفتوة والفروسية ، والبطولة والقوة ، والشجاعة والإقدام ، والشهامة والمروءة ، والنجدة والحمية ، وقد كانت فروسيتهم بحق فروسية أصلية تصدر عن بطولة راسخة ، وشجاعة نادرة ، وإقدام جرىء ، واقتدار عجيب .

وإذا كانت الفروسية الجاهلية قد بعثت فى نفوس أصحابها ضربا من التسامى والإحساس بالمروءة الكاملة مما مهيأ لهم التغنى دائما بالمثل الخلقية الرفيعة والفضائل النادرة والخصال الحميدة والبطولة الفذة والعزيمة الفتية والهمة العالية . . فقد كانت هناك فروسية من نوع آخر أضافت إلى الشعر الجاهلى روحا جديدا من التمرد والثورة ورفض الواقع والخروج على القبيلة ونظامها ، والتحرش بها ، والانتصاف منها ، وإحراجها والكيد لها ، واعتزالها والبعد عنها والانقطاع للمغامرة ، وتفضيل حياة البؤس والتشرد والجوع ، والهيام على الوجه فى الصحراء مع الوحوش النافرة والسباع الجائحة والذئاب العاوية والأسود الضارية ، وسلب الأموال ، والسطو على القوافل انتصافا من الأغنياء ، وبرا بالفقراء ودفعا لغوائل البؤس والشقاء عن البؤساء الضعفاء وانتقاما ممن نبذوهم وتبرأوا منهم ، أو ممن أهانوهم وأساءوا إليهم وتعالوا عليهم وعيروهم بسوادهم ودناءة أصولهم أو طلبا للكسب السهل المربح عن طريق احتراف الصعلكة والسلب والنهب .

هؤلاء هم الفرسان الصعاليك الذين كانت لهم صولات وجولات وأحداث ومغامرات ، وعرفوا بالشجاعة وقوة البأس وشدة المراس ، وعنف الفتك ، وبالغ الصبر ، وعظيم الاحتمال ، هؤلاء هم الفرسان الصعاليك الذين كانت لهم أشعار متميزة بخصائصها الفنية وسماتها المميزة وملامحها البارزة تحركها شاعرية غزيرة متدفقة وعاطفة مشبوبة متوهجة فكانت بحق أدبا رائعا ، وفنا بديعا وإنتاجا خصبا جادت به قرائحهم ، وصاغته مواهبهم ، وصقلته تجاربهم ، وأذكته ومضات قلوبهم ودفقات خواطرهم ومشاعرهم وتمثل ذلك بوضوح وجلاء فى شعر معجب رائق لتأبط شرا وعروة بن الورد العبسى ، والشنفرى الأزدى ، والسليك بن السلكة ، وقيس بن الحدادية ، وأبى الطمحان القينى ، وأبى خراش الهذلى وغيرهم .

ومع شعر الصعاليك « ولامية العرب » المنسوبة إلى الشنفرى الازدى يدور هذا البحث الذى أحاول فيه الكشف عن بعض الجوانب المضيئة في الشعر الجاهلى وإبراز الملامح الفنية الأصيلة فى تراثنا الأدبى والرد بالدليل على هـذه الادعاءات الباطلة ، والآراء الزائفة ، والأقاويل المرجفـة بالشك والتضليل .

ولقد مهدت لهذا البحث بمقدمة ألقيت فيها بعض الضوء على الحياة الجاهلية والعصبية القبلية ، ثم تناولت باسهاب وتفصيل الصعلكة فى معناها ونشأتها . . في مدلولها اللغوى واستعمالها الاجتماعي والأدبى .

وبتركيز وعمق عرضت لشعر الصعاليك وأبرزت خصائصه الفنية وملامحه المميزة وسماته المعبرة وقسماته الواضحة كما تناولت أشهر الشعراء

الصعاليك وقدمت بعض النماذج من أشعارهم مع مزيد عناية بعروة بن الورد، وتأبط شرا والشنفرى الأزدى ..

وفى حديثى عن الشنفرى أجليت ملامح شخصيته وأوضحت الظروف التى أحاطت بنشأته لما لها من آثار بعيدة المدى فى تكوينه الاجتماعى والأدبى والفنى ... وكشفت عن السمات الفنية الدقيقة لشعره وما يمتاز به فى معناه ومبناه وشكله ومضونه ومظهره ، وجوهره ، فى أفكاره ومعانيه ، وصوره وأخيلته ، وألفاظه وأساليبه

وهكذا مهدت السبيل لكى أتناول بالبحث لامية العرب المنسوبه إليه والموسومة بميسمه والشاهدة على عبقريته وتفرده فى شاعريته ...

وقد كان اهتمامى وتركيزى منصبا على الجوانب التالية :

لامية العرب : موضوعها وملامحها ، ونسبتها للشنفرى وخصائصها الفنية وسماتها المميزة ، وأهميتها وسر خلودها .

وأرجو أن أكون قد وفيت البحث حقه أو بعض حقه « وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »

دكتور : عبد الله حسين على سليمان

مقدمة

(العرب والحياة الجاهلية والعصبية القبلية)

العرب من الشعوب السامية التى انحدرت فى الأصل من سام بن نوح عليه السلام . وهذه الشعوب تشمل الأحباش والفينيقيين والبابليين« الأشور والكلدان » وليس هناك دليل قاطع يفيد بأن هؤلاء جميعا من أصل «سام» غير أن اشتراكهم في أكثر المميزات البشرية فى العقل والجسم وقرب اللغة والموطن يجعلنا نرجح أن أصل هذه الشعوب واحد (١) .

ويختلف المؤرخون فى موطن هذه المجموعة السامية أكان بين دجلة والفرات ، أو كان فى جزيرة العرب نفسها ، والمرجح لدى أكثر الباحثين أن «وادى الفرات» لم يعمر إلا بعد جزيرة العرب بعدة قرون وأن حضارة « الساميين » تدل على أنهم نشأوا في الأصل نشأة صحراوية ،وأن كثيرا من القبائل السامية ظلت أحقابا طويلة في طور البدوة ثم حدثت فترات من التوسع والانسياب غيرت حياتهم فتحولوا من نظام العشيرة والقبيلة اى من المشيخات إلى الممالك فالعاهليات . (٢) .

وجزيرة العرب تطلق على هذه الأرض الواقعة فى الجنوب الغربى من آسيا التى نشأ فيها العرب واطلقوا عليها هذه التسمية مع ان الماء لايحيط بها إلا من ثلاث جهات :

---

١ ـ راجع « الأساس » في اللغات السامية لعلى العنانى وتاريخ اللغات السامية لو لفنسون .

٢ ـ تاريخ العرب قبل الإسلام لمحمد مصطفى النجارط الأزهر ١٩٥٣ م

الخليج الفارسى وبحر عمان شرقا ، والمحيط الهندى جنوبا ، وبحر القلزم (الأحمر) غربا ، أما فى الشمال فتحدها أرض الجزيرة وبوادى الشام وفلسطين ، فهى وفق الاصطلاح الجغرافى « شبه جزيرة » وليست بجزيرة كما كان يطلق عليها العرب القدامى :

وهى عبارة عن مستطيل غير متوازى الأضلاع طوله متسع . عن عرضه قليلا تمثله هضبة مكونة من جبال وصحار رملية وهى تنحدر انحدارين أحدهما نحو الغرب وهو انحدار شديد ينتهي إلى وادضيق على ساحل البحر الأحمر يسمى « تهامة » والآخرى نحو الشرق وهو انحدار تدريجى ويكون منطقة « نجد » ويظل هذا الوصف صحيحا إذا اتجهنا شرقا حتى تبدو لنا سلسلة من الجبال عند « عمان » تعرف باسم « الجبل الأخضر » أما قمة الهضبة فهى عبارة على سلسلة جبال « السراة » المعروفة باسم « الحجاز» لأنها تحجز بين « تهامة » و نجد » أو بين اليمن والشام .

وأهم الصحارى صحراء السماوة وربما سميت « بادية السماوة» أو صحراء « النفود » وتشغل معظم شمال الجزيرة ورمالها وعساء تسوخ فيها الأقدام ويصعب فيها المسير ، وسكانها من البدو يقيمون فيها شتاء ويرحلون عنها صيفا طلبا الماء والكلأ فى التخوم الشمالية وجنوبها جبل « شمر » على هيئة هلال محدودب نحو الجنوب وربما سمي جبل «طيء» وهو غزير المطر معتدل الجو .. وهناك صحراء « الربع الخالى » ومنها جزء يسمى « الأحقاف » شمال « حضر موت » وكان مسكنا لعاد قوم هود ، وجزء يسمى «الدهناء» شمالى « مهرة » وتتصل هذه الصحراء ببادية السماوة وتمتد شرقا إلى الخليج الفارسى « العربى الآن » وأرضها ممتوية صلبة تنتشر فيها الحصباء وهى

وهى مجدبة وربما نزل بها قليل من المطر فأنبت العشب والكلأ فأقام بها البدو شتاء ثم يرحلون عنها صيفا . ويوجد نوع من التربة يسمى « الأحساء» فى المنطقة المعروفة بهذا الاسم على الخليج الفارسى وهى أرض رملية تحتها طبقة صلبة فاذا نزل المطر تشبع الرمل بالماء ومنعته الصلابة أن يغيض ومنعه الرمل أن يجف فاذا تم الحفر عثر على الماء . وأشهر الجبال سلسلة جبال السراة «الحجاز » وهى تمتد من بوادى الشام إلى اليمن وبها كثير من الوديان العميقة التي تتخللها وتعوق السير فيها ، وهذه الجبال تسمى فى بعض أجزائها بأسماء مختلفة : فالجزء الذى يشرف على مكة من وفى غربها جبل « قينقاع » وفى جنوبها جبل « أبى قبيس » وجبل « ثور» الذى اختفى فيه الرسول وصاحبه أبو بكر . وجبل « رضوى » حول المدينة .

وأشهر الوديان وادى «الرمة» ويبدأ قريبا من المدينة إلى «شط العرب » مارا بالقصيم .

وأهم طرق القوافـــل . طريق الشرق وهو طريق الخليج : الفرات ـ بوادى الشام ـ فلسطين ، وطريق الغرب وهو طريق اليمن ـ الحجاز ـ الشام [1] .

وقد جرت العادة أن يقال لما قبل الإسلام « العصر الجاهلى » وهذا ليس صحيحا على وجه الإطلاق لأن العصر الذى يتناوله المشتغلون بالأدب العربى

---

١ ـ انظر المسالك والممالك لابن حوقل ـ القدمة لابن خلدون ـ بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب للالوسى ـ صفة جزيرة العرب للهمذانى وصفة جزيرة العرب للشريف الإدريسى .

عصر محدود ضيق يقع كله قبل نحو قرنين أو قرن و نصف من ظهور الإسلام. وهذا هو الذى ينبغى أن يطلق عليه « العصر الجاهلى » فى تاريخ العرب أما ما سبق ذلك من الأحداث فهو تاريخ قديم يسمى بتاريخ العرب قبل الإسلام لا تاريخ العرب فى الجاهلية .

ولعل أقدم حادثة تاريخية لها شهرتها فى تاريخ العرب هى هجرة إبراهيم وولده إسماعيل و نزولهما بواد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم ثم ما كان من اختلاط إسماعيل بجرهم الأول من العرب البائدة وذلك حوالى سنه ٢٢٠٠ قبل الميلاد . ويميل كتاب العرب إلى القول بأن « عادا » و « ثمود » سبقوا عهد إبراهيم و إسماعيل على عكس ما يراه بعض المؤرخين ،ولعل ماجاء فى القرآن الكريم يرجح رأى المؤرخين العرب (١) .

والعرب منهم « البائدة » وهم القبائل التى هلكت واندثرت أخبارها قبل الإسلام ، وأشهرهم عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ، والعمالقة ، وجرهم . ومعين .

ومنهم « العاربة » وهم الشعب الأول من العرب الباقية ويعرفون بالقحطانيين نسبة إلى جدهم الأعلى « قحطان » وقد يسمون العرب اليمنية نسبة إلى موطنهم الأول اليمن أو السبئية نسبة إلى أشهر دولهم وقد ظلوا فى اليمن إلى خراب سد مأرب ثم تفرقوا ، ويقول النسابون : إن قحطان أبو

---

١ ــ انظر قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار وقصص القرآن الكريم لجاد المولى وآخرين .

اليمنيين جميعا وأنه نسل شعبين عظيمين : كهلان وحمير ، ومن كهلان : طيء وهمدان ومذحج ولخم كندة والأزد التي ينتسب إليها الغساسنة بالشام وخزاعة والأوس والخزرج . ومن حمير بنو كلب وبنو تنوخ .

ومنهم المستعربة وهم عرب الشمال من نسل إسماعيل ويقال لهم عرب الحجاز أو العدنانيين وعدنان من نسل إسماعيل ومن عدنان نشأ فرعان عظيمان: ربيعة ومضر .

وأشهر قبائل ربيعة : أسد ، ووائل التي تنقسم إلى بكر وتغلب وأشهر قبائل مضر : قيس عيلان ومنهم هوازن وسليم عربي نجد وعبس وذبيان شمالي نجد ومن قبائل مضر أيضا : تميم التي كانت تسكن بادية البصرة وكنانة التي منها قريش من المسمى بفهر (الجد العاشر للرسول) وكان موطنها جنوبي الحجاز .

وقد تميزت العرب العاربة عن المستعربة بأن الدول التي قامت في جزيرة العرب كلها كانت منها أما المستعربة فقد ظلت متفرقة في البلاد يشنون الغارة ، متنقلين بين السهول والوديان مفاخرين بنسبهم واستقلالهم فلم تختلط أنسابهم بغيرها وقد انتظمتهم قبائل ذات نظام خاص يتقيد به كل فرد من أبنائها كما يتمتع بحق حماية القبيلة له .

وقد أثبت الباحثون جملة الفوارق بين عرب الحجاز « العدنانيين » وعرب اليمن «القحطانيين» فعرب اليمن كانوا يعيشون عيشة استقرار وإقامة غالبا في مدن عامرة وحضارة ومدنية وحظ موفور من العلوم والمعارف وحذق لكثير من الصناعات المختلفة كصقل السيف وتقويم الرماح ونسج البرود

والأكسية والثياب ، أما عرب الشمال فكانوا أهل بداوة لا يستقرون فى مكان بل كانوا أهل رحلة وانتقال وراء الماء والكلأ فى بادية العرب يسكنون الخيام ويرعون الإبل والغنم ويحتقرون الصناعات وقد اشتغل أهل الحضر منهم بالتجارة وكان لهم استقرار وغنى وثراء في مكة والطائف ويثرب .

وقد كانت لغة العدنانيين تخالف لغة أهل اليمن في وجوه كثيرة من المفردات وأسماء الإشارة والضمائر وأدوات التعريف وأساليب الإعراب . . الخ .

كما توجد فوارق أخرى خلقية ترجع إلى لون البشرة وشكل الرأس وطول القامة فأهل الشمال يغلب عليهم جمال الوجه واستدارته وكبر الرأس وطول القامة والبياض الضارب إلى السمرة أما أهل الجنوب « اليمن » فقليلا ما تتوفر فيهم هذه الصفات بل يغلب عليهم السواد وتشبه سحنهم من وجوه كثيرة سحنة الإفريقيين من الأحباش والصوماليين .

ومعروف أن قوام الإجتماع عند العرب كان الأسرة التي يكونها الرجل بالزواج والتناسل ، ولا يزال يقوم عليها ويعنى بكل حاجياتها حتى تشتد سواعد أبنائها ويصبحون قادرين على الكسب فيقوم الوالد فيهم بدور المرشد الناجح والخبير المجرب ، ويفصل بينهم فى المنازعات المختلفة التي قد تقوم بينهم ، فلا يتركهم يتفرقون حتى لا يطمع فيهم طامع إذ هم مصدر عزته وحاجه وتستمر الأسرة فى الزيادة حتى تتكون القبيلة (١) .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام : محمد مصطفى النجار .

والبدو من العرب كانوا يعيشون على الفطرة والطبيعة يربون الماشية فيأكلون لحومها ويشربون ألبانها ويلبسون أصوافها وأوبارها وأشعارها ويتخذون منها مساكنهم وخيامهم ، وهم رحل يتنقلون وراء الكلأ والعشب وغيث السماء ، ولقد اتخذوا لهم وسيلة أخرى في وسائل العيش وأعنى بها الإغارة والسلب يغيرون على قبيله معادية فيأخذون جمالهم ويسبون نساءهم وأولادهم ، وكثيرا ماتضطر القبيلة الضعيفة إلى الاحتماء بقبيلة قوية تذود عنها ، ولكن قل أن يدوم حلفهم أو يطول فسرعان ماينفض اجتماعهم ، وتنفصم وحدتهم ، فينقلب المتحالفون أعداء متحاربين .

وأفراد القبيلة متضامنون كأشد مايكون التضامن فهم ينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم إذا . جنى أحدهم جناية حملتها قبيلته وإذا اغنم فغنمه للقبيلة ولرئيسها خيرها ، وإذا أبت قبيلته أن تحميه لجأ إلى قبيلة أخرى ووالاها . فوطنية البدوى إنما هى وطنية قبلية لا شعبية [1] . وهذا الشعور بالارتباط بالقبيلة هو المسمى بالعصبية والبدو أهل مروءة نغنوا بها فى أشعارهم وآدابهم والمروءة تعتمد على الشجاعة والكرم ، أما شجاعته فكان يدفعه إليها انفراده فى البادية بعيدا عن المجتمع والحكومة التي تتولى الدفاع عنه فكان لذلك لا يطمئن له مضجع ، ولا تغمض له عين إلا على تحفز وتوثب إذا ما هاجمه مهاجم أو نازله منازل ، ولذا كانت الصحراء ميدانا لتخريج الأبطال ومساعير

---

١ ـ تاريخ العرب قبل الإسلام : ص ٩٢ .

الحرب وفرسان المعامع [١] وكان يدفعه إلى الشجاعة أيضا عيشته المتقشفة البدائية التي لم يكن يحزن على فقدها إذا تعرضت لخطر الضياع أثناء الحروب على خلاف أهل المدن الذين يعيشون عيشه الترف والنعيم فهؤلاء عادة يخشون الضياع ويحرصون على الحياة ويميلون إلى السلم والبعد عن المشاحنات بقدر الإمكان .

وأما الكرم فكان يدفع البدوى اليه عيشته فى الصحراء وتنقلاته فيها وتعرضه للنزول على القبيلة أثنـــاء رحلاته فارتاضت نفوسهم على السماحة وانطبعت على حب القرى فكان ينحر الجزور للضيف أحوج ما يكون إليه لحمل أثقاله ويعين البائس الفقير وينجد المستغيث ، ويمكن تلخيص أخلاق البدوى فى الشجاعة والكرم والاعتماد على النفس والذكاء واليقظة وعزة النفس وإباء الضيم والحمية والشهامة ورباطة الجأش وأخيرا يحيا البدو فى حرية مطلقة البدو فى حرية مطلقة ولا يطيقون سلطـــانا يقيدهم بنظام إلا ما كان من أنفسهم ، فهم أنف أبـاة يتعشقون الحرية ويمقتون الذلة والقيود [٢] .

أما الحضر من العرب فهم سكان المدن وهم أرقى من البدو كثيرا يعيشون فى خفض ولين ولهم تقاليد وأخلاق البدو فى الغالب فهم يعولون فى معيشتهم على التجارة أو الزراعة أو الصناعة وخاصة فى مراكز المدينة والحضارة والتقدم ، ويشترك الحضر مع البدو فى صفات الكرم والشجاعة والذكاء

---

١ ـ الفتوة عند العرب : عمر الدسوقى ص ٢١ .

٢ ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلى : أحمد محمد الحوفى . والفتوة عند العرب : لعمر الدسوقى ص ٣ .

وهذه ظواهر إجتماعية كان للبيئة العربية أثر كبير فيها .

ولقد عاش العربى فى الصحراء وهو فى جهاد مستمر وكفاح طويل شاق ضد طبيعة قاسية قلقة متمردة وقد امتزج بهذه الطبيعة الصحراوية امتزاجا تاما وصار قلبه جلدا لا يرهب ولا يفزع، وصارت عنده مناعة ضد الغيم والتبلد ولذلك عظمت قوى الكفاح فى العربى كما عظمت ثمرات هذه القوى فى نفسه فصار من أصح أهل الأرض بنية ، وأوفرهم قوة ، ولقد سئل أحد الأعراب :

كيف البدو فيكم ؟ فقال : تأكل الشمس ونشرب الريح : (١) وكما توفرت للعربى عوامل الصحة والقوة والحيوية توفرت له صفات الفتوة من الشجاعة والكرم والنجدة والمروءة والشهامة والفروسية والإقدام والأنفة والحمية فهذا عنترة بن شداد العبسى يعرض عرضا ضافيا لصفات الفتوة وماينبغى أن يتحلى به كل فتى من تلبية لنداء الخير والنجدة والشهامة ومواجهة العظائم وتفريج الكرب وحل المعضلات :

والموت خـــير للفـتى من حياته ... إذا لم يثب للأمر إلا بقـائد
فعـالج جسيمات الأمـور ولا تكن ... هيبت الفـؤاد همـه الوسائد
كفى حاجة الأضيـاف حتى يريحهـا ... عن الحى منا كل أروع ماجد
تراه بتفريج الأمـور ولفهـــا ... لمـا نال من معروفها غير زاهد
وليس أخونا عند شر يخـــافه ... ولا عند خير إن رجاه بواحد
إذا قيـل من للمعضـلات أجابه ... عظام اللهى منا طوال السواعد

---

(١) الفتوة عند العرب : عمر الدسوقى ص ٢٧ .

وهذا هو طرفة بن العبد البكرى يرسم لنا صورة للفتى كما يتصورها :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى ... عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
أحلت عليها بالقطيع فأجذمت ... وقد خب آل الأمعز المتوقد
فذالت كما ذالت وليدة مجلس ... ترى ربها أذيال سحل مهدد
ولست بحلال التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد
فان تبغنى فى حلقة القوم تلقنى ... وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد
وإن يلتق الحى الجميع تلافنى ... إلى ذروة البيت الشريف المصمد

فالفتوة فى نظره شجاعة وكرم ونجدة وشهامة .. وهى إلى جوار ذلك إتلاف للمال فى الجد والهزل وعدم الاعتداد بالحياة فى سلم أو حرب .

ويهمنى فى هذا البحث أن أتحدث عن .. العصبية القبلية وهى فى الحقيقة ظاهرة واضحة فى تاريخ العرب فى الجاهلية وهذه العصبية قد أوجدتها البيئة الصحراوية الخالية من الأسوار والحصون وأنواع الحماية .

والسبب فى قوتها أن بها يصدق الدفاع بين أفراد النسب الواحد وتشتد شوكتهم ويخشى بأسهم وتعظم رهبة العدو لهم ، وكلما بعدت القرابة وهنت الصلة وضعفت النصرة وقل المون لأن النسب أمر معنوى لاحقيقة له إلا فى هذه الصلة ومن غيرها يصير مجانا عديم الفائدة .. (١)

وتعتبر العصبية القبلية من أقوى العصبيات وهناك عصبيات أخرى كالحلف والولاء : فالحلف وهو المعاهدة كان يجمع بين القبائل ولو تباعدت أنسابها ،

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٣ .

وإنما يلتجأ إلى هـذا النوع في الغالب حـين تفتقـد القوة والنصرة في ذوى القرابة .

أما الولاء فهو الرابطة التي كانت توحد بين العرب والأعاجم الذين عاشوا بينهم ويسمى هؤلاء الأعاجم «الموالى» ومثلهم الأسرى الذين لم يستطيعوا فداء أنفسهم .

وكان المولى يتمتع بكل الحقوق كأى فرد من أفراد القبيلة . وضد الولاء : الخلع فكان الرجل إذا ساءه أمر من أبيه أو من تولاه خلعه أى نفاه عن نفسه فيصبح غير مرتبط بالمولى وتصبح قبيلته فى حل من جميع التصرفات التي يرتبط بها المولى . ولا يتحملون جريرتها ، وقد يعلنون ذلك الخلع فى سوق عكاظ وعلى رءوس الأشهاد .

فى هذه البيئة البدوية الصحراوية بكل عاداتها وتقاليدها وأخلاقها وطباعهـا نشأت البطـولة ونشأت الفتوة كـما نشأت الصعلكة ونشأ الصعاليك :

يقول الأستاذ أحمد أمين [١] : « ويخيل إلى أنه كان فى الجاهلية طبقتان مختلفتان : طبقة الفتيان وهم أولاد الأغنياء من الشبان كامرىء القيس وطرفة تقابلهـا طبقـــة أخرى وهى طبقـة أولاد الفقراء ويسمون الصعاليك : »

ويقول في موضع آخر [٢] :

«١» الصعلكة والفتوة فى الإسلام : أحمد أمين ص ١٨ .

«٢» الصعلكة والفتوة في الإسلام : ص ٢١ .

« والخلاصة أننا نرى فى الحياة الجاهلية البدوية نوعين متميزين من الشبان : أبناء الذوات قد يجتمعون ويتخذون لهم محلا مختارا ويعيشون عيشه إباحية فيها خمر وفيها لهو وغناء وفيها نساء وهم مع ذلك كرام يضيفون من نزل بهم ويغدقون عليهم من خيرهم ، وتقابلهم طائفة أخرى من أبناء الفقراء يسمون الصعاليك :

يشاركونهم فى الكرم والاشتراكية ويخالفونهم فى أن حياتهم ليست حياة دعة واستمتاع ولكن حياة غزو وسلب ونهب وتوزيع عادل على أمثالهم يضـــاف إلى ذلك فرق آخر وهو أن الفتيان يعطون ما يعطون وهم مترفعون ، والصعاليك يعطون مايعطون وهم يعتقدون أنهم مع زملائهم الفقراء متساوون ... » والذى أطرحه للبحث الآن هو :

ماممنى الصعلكة ، وما مدلولها ؟

وكيف نشأت هذه الصعلكة ؟

ومن هم هؤلاء الصعاليك ؟

الصعلكة : معناها في الاصطلاح اللغوى والاستعمال الاجتماعى والأدبي :

ذهب ابن دريد إلى أن أصل الصعلكة : الفقر [1] ، وقد جاء في لسان العرب [2] : الصعلوك : الفقير الذى لامال له وزاد الأزهرى قوله .. «ولااعتماد» ومعنى ذلك أن الصعلوك فى اللغة هو الفقير الذى لامال له يستعين به على أعباء الحياة ، ولااعتماد له على شيء أو أحد ، وإن شئت فقل هو الفقير الذى يواجه الحياة وحيدا بلا سند أو معين فهو فقير مجرد فى المال ومجرد من كل مساعد أو معين ويدل على ذلك قول حاتم الطائى :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى .·. فكلا سقانا بكأسيهما الدهر

وقد وردت أقوال عدة فى معني الصعلكة والتصعلك وكلها تدور حول الانجراد والضمور مما يؤيد ماسبق أن ذكرت فقد أورد ابن فارس أن الصاد والعين واللام «ص ع ل» أصيل يدل على صغر وانجراد .[3] وتصعلكت الإبل: خرجت أو بارها وانجردت ، ورجل صعلك الرأس : مدوره أو صغيره .

وقال الاصمعى : تصعلكن : دقق وطار عفاؤها عنها . أورد ذلك فى تفسيره لقول أبى دؤاد :

قد تصعلكن في الربيع وقد .·. فزع جلد الفرائض الأقدام

والتصعلك : الفقر وصعاليك العرب ذؤبانها وكان عروة بن الورد يسمى ،

«١» جمهرة اللغة ٣ حـ ص ٣٨٣ باب ماجاء على فعلول . « أبن دريد »

«٢» لسان العرب : ابن منظور مادة صعلك .

«٣» مقاييس اللغة : إبن فارس حـ٣ ص ٢٨٦ .

عروة الصعاليك لانه كان يجمع الفقراء فى حظيرة فيرزقهم مما يغنم .

والاستعمال الادبى للكلمة جاء بعضه موافقا المعنى اللغوى الذى أشرنا إليه وجاء بعضه بمفاهيم جديدة للكلمة لا تتفق تماما مع المعنى اللغوى :

فالصعاليك تارة هم المشاغبون المغيرون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم فى النهب والسلب والإغارة كما يقول عمرو بن برقة الهمدانى :

تقـول سليمى لاتعرض لتلفـة وليلك عن ليل الصعاليك نائم
وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم
ألم تعلمـى أن الصعاليك نومهم قليـل إذا نـام الخـلى المسالم

فالكلمة قد خرجت من الدائرة اللغوية وهى دائرة الفقر إلى دائرة أخرى أوسع منها هى دائرة الغزو والإغارة للنهب والسلب .

وقد أورد أبو الفرج في أغانيه والبغدادى فى خزانته حديث زيد بن عدى حين خرج للثأر من النعمان لحبسه أباه حتى الموت فأتى كسرى وأوغر صدره على النعمان ، وترامى الخبر إلى النعمان فقر من كسرى ولجأ إلى قبائل العرب لكن أحدا لم يجرؤ على إجارته ، وقال له سيد من بنى شيبان فامض إلى صاحبك فاما أن صفح عنك فعدت ملكا عزيزا وإما أن أصابك فالموت خير لك من أن يتلعب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها وتأكل مالك » (١) فمن الواضح أن المراد بالصعاليك هنا فئة متميزة بصفاتها وملامحها من قطاع الطرق كانت منتشرة فى أنحاء الجزيرة العربية .

---

(١) الاغانى لأبى الفرج الاصفهانى حـ ٢ ص ١٢٦ وخزانه الادب للبغدادى حـ ١ ص ١٧٥ ، ص ١٨٦ .

وإذا عدنا إلى الاستعمال اللغوى وجدنا بعض اللغويين يفسرون صعاليك العرب بأنهم ذؤبان العـــرب ، وفى القاموس المحيط . وذؤبان العرب اصوصهم وصعاليكهم وفى أساس البلاغة وهم من ذؤبان العرب: من صعاليكهم وشطارهم وفى النهاية لابن الأثير يقال لصعاليك العرب ولصوصها ذؤبان لأنهم كالذئاب » .

وأورد الأستاذ أحمد أمين قوله (١) .

« الصعلكة كما وردت فى كتب اللغة تساوى الفقر ، والصعاليك شبان فقراء أمثال عروة بن الورد ، وتأبط شرا ، والسليك ابن السلكة ، والشنفرى ، ويسمون أيضا ذؤبان العرب جمع ذئب لأنهم يختطفون المال كما تخطف الذئاب ويسمون أيضا «العدائين» لأنهم كانوا مشهورين بسرعة العدو فى السلب والنهب . . . »

من هذا كله نستطيع أن نقرر أن الصعاليك فئة متميزة من الناس ألجأهم الفقر وأرغمتهم ظروف اجتماعية خاصة دفعتهم دفعا إلى اتخاذ منهج خاص قوامه الإغارة والغزو والنهب والسلب وحياة الليل معتزين بهذا النهج حريصين على هذه الحياة ، ولهم فى ذلك فلسفتهم ولهم وجهة نظرهم التى اطمأنوا إليها وتمسكوا بها وحرصوا عليها . . .

وليس الأمر بعد ذلك بحاجة إلى تفسير أو بيان أو تهويل كما حاول أن يفعل بعض الباحثين (٢) حيث يقول بعد أن أورد كل ما قيل عن الصعلكة والتصعلك :

---

(١) الصعلكة والفتوة فى الإسلام لأحمد أمين ص ١٨ .

(٢) يوسف خليف فى الشعراء الصاليك ص ٢٦ .

« أغلب الظن أننا لم نصل الى أشياء كثير وأننا مازلنا فى بداية الطريق الطويل متحسس خطواتنا في الظلام تحت أضواء النجوم الخافتة،وأن شوطا بعيدا مايزال ينظرانا حتي مطلع الفجر » .

وكل مافعله هذا الباحث أنه تحدث عن الظروف المحيطة بنشأة الصعلكة ولم يضف شيئا ذابال لمعنى الكلمة أكثر مما ذكرنا . . .

نشأة الصعلكة والصعاليك :

إن البيئة الصحراوية ذات المناخ الحاد والموارد الطبيعية المحدودة التي تعتمد على المطر تجود به السماء فى فترات متباعدة غير منتظمة والتي يسيطر عليها الجفاف والجدب أكثر شهور السنة ، هذه البيئة التى تتمثل فيها قسوة الطبيعة ورهبتها ووحشتها وجبروتها وغلظتها تعد عاملا فعالا فى وجود الفقر ، فالقفر مكان الشظف والسغب ونكد العيش وشظف الأحوال ،وسوء المواطن التي أختص بها أهل البادية أمور حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة (١) .

وكما كانت هذه البيئة الطبيعية عاملا فى وجود الفقر كانت عاملا فى إحساس الفقراء إحساسا قويا به حين أوجدت فى جوار المناطق المجدبة مناطق خصبة مما أشعر الكثرة من أبناء هذه المناطق بالحرمان إلى جوار حياة الترف والنعيم من حولهم .

وإذا كانت البيئة البدوية قد خلقت هؤلاء الرجال الأقوياء الأشداء من أبناء الصحراء ، فان هؤلاء الأشداء الأقوياء كانوا يرفضون الاعتماد فى حياتهم على الزراعة أو الصناعة ولا يجدون سبيلا للعيش إلا في الرعي أو التجارة أو الصيد أو النهب والسلب ، وإذا كان الرعى مهانة عند بعضهم لأنه من أعمال العبيد الأذلاء فلم يكن هناك مفر من الغزو والاغارة للسلب والنهب ، ومن هنا نشأ الصعاليك الذين احترفوا منهة السلب والنهب ،

---

١ ـ مقدمة ابن خلدون الفصل التاسع من الباب الثانى من الكتاب الأول ص ١٢٩ .

وكانت لهم طرائقهم ومناهجهم فقد ارتدوا أردية الغارات وسفك الدماء ولا شك أن هذه التسمية مستمدة من أسباب اتجاههم الأول إلى ذلك الاحتراف وهو الفقر والعوز والمسغبة أو الشذوذ النفسى والمروق من المجتمع والخروج عليه ، ولقد ساعد النظام القبلي العنيف و نظام الرق السخيف وفساد الأحوال وسوء المعاملة على حمل كثير من الشباب على أن يحيوا هذه الحياة و يلتحفوا رداء الصعلكة و يعيشوا فى ظلال العبث والفساد و كثير منهم خضع فى اتجاهاته تلك إلى أو ضاع قاهرة حزت فى روحه وحطمت كيانه وزازلت فى نفسه القواعد الاجتماعية العامة .

وقد أنتجت الحالة الإجتماعية فى جزيرة العرب هذه الصعلكة لأن أكثرهم كان من الفقراء ولا يجدون ما يأكلون ، وإذا حصلوا على شيء من غارة أو نحوها فشيخ القبيلة هو الذى يأخذ من الغنيمة حصة الأسد ، وهم لا يأكلون إلا الفتات ثم نتاج الأرض قليل محدود لا يكفى للعيش أدنى عيشة ، وأبسط حياة ، ولم يكن هناك من سبيل للتحرر من هذا إلا الإغارة على الأغنياء الموسرين لـكنهم يتوخون ترك الأغنيـاء المحسنين تقـديرا لهم ومروءة بهم وشهامة من أجلهم ، كما يتوخون القسمة بالسوية فيما بينهم دون تفاضل أو تمايز فالكل فى حق الغنيمة سواء .

وقد كثر عدد هؤلاء الصعاليك بسبب أن أفرادا خرجوا على حكم القبيلة لجريرة ارتكبوها أو فعلة أتوها فخلعوا وسموا « الخلعاء » ولم يجدوا أمامهم إلا واحدا من طريقين إما الفرار إلى الصحراء لملاقاة مصير التشرد والضياع بلا نصير يقف بجانبه ولا شيء يعتمد عليه ، وإما باللجوء إلى

قبيله يعيش فى جوارها ويطلب حمايتها ، ومن هنا يكون له حق الجوار ، وحق الجوار من الحقوق المقدسة وكان مما يفخر به العربى أن يكون ملاذا لكل خائف وملجأ لكل طريد وإذا كانت للجار حقوق يمتع بها فان عليه واجبات يلتزم بها وتنحصر فى احترام الجوار وعدم الإساءة الى من أجاروه بأى وجه من وجوه الاساءة ، ولم تكن حياة هؤلاء الخلعاء طيبة دائما فى حماية من أجاروهم ، فقد كانت تتعرض لهزات نتيجة ظروف خاصة يتعرضون فيها للغدر أو الطرد وحسب هؤلاء مذلة وهوانا أن ديتهم كانت نصف دية ابن القبيلة الصريح (١) .

واذا تتبعنا أخبار صعاليك العرب وجدنا أن طائفة كبيرة منهم من الخلعاء والشذاذ .. فهذا هو قيس بن الحدادية كان صعلوكا خليعا خلعته قبيلته خزاعة لاشتراكه مع جماعة من أسرته فى قتل أحد افراد قبيلتهم ، وعجزهم عن دفع الدية وقد ألف قيس بعد خلعه عصابة من صعاليك العرب جمع فيها شذاذا من العرب وفتاكا من قومه (٢) ويخوض بهم غمار شدائد وأهوال حتى قتل وهو خليع قتلة كان فيها شجاعا حتى النهاية .

وأبو الطمحان القينى يعد مع الخلعاء الشذاد والأخبار عنه كلها تتواتر على فسقه وفجوره ولهوه واستهتاره (٣) .

---

١ ـ الأغانى لابى الفرج الاصفهانى جـ ٣ ص ١٩ ، ص ٢٦ .

٢ ـ الأغانى ١٣ ص ٢ .

٣ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٢٢٩ . الأغانى جـ١١/ ١٣٠ ١٣٢ .

وقد قضى حياة قلقة مضطربة متنقلا بين الأحياء مستجيرا بها لا يكاد يستقر فى جوار وقد قضى عليه أن يموت بعيداً عن أهله رغم شدة حنينه وشوقه إليهم وكما قلت فان نظام الرق والرقيق كان عاملا هاما فى نشأة الصعلكة ، وقد كانت طبقة العبيد تتألف من عنصرين : عنصر عربى وهم الأسرى الذين كانوا يقعون فى أيدى القبيلة في حروبها مع القبائل الاخرى ، وعنصر غير عربى وهم الرقيق الذين كانوا يجلبون من المناطق المجاورة ، فقد كان تجار الرقيق يحملون العبيد والاماء من هذه البلاد إلى جزيرة العرب يبيعونهم فى أسواقها بالمواسم [1] . وليس من شك في أن حياة العبيد كانت سلسلة من الذلة والمهانة وحياة الضعة ، ولم يكن يعهد إليهم من الاعمال إلا تلك التي يأنف السادة من القيام بها وقد يحدث أن يتزوج العربى من أمته وهو زواج غير متكافىء ، وقد أطلق العرب على الأبناء من هذا الزواج «الهجناء» والهجين عند العرب الذى أبوه شريف وأمه وضيعة والأصل فى ذلك أن تكون أمة [2] . وكان أسوا هؤلاء الهجناء حظا وأوضعهم منزلة أولاد الاماء السود الذين سرى السواد إليهم من أمهاتهم فقد كانوا سبة يعير بهم الأباء بسبب اللون وقد أطلق العرب اسما خاصا على هؤلاء السود تمييزا لهم من اخوانهم الهجناء فسموهم « الأغربة » .

جاء فى لسان العرب « أغربة العرب سودانهم شبهوا بالأغربة في لونهم ، ويقول أبو عبيدة » وإنما سموا أغربة لأن أمهاتهم كن سوداً » ويواجه

---

١ — تاريخ التمدن الاسلامي — جورجى زيدان ٤ / ٢٠ .

٢ — الكامل للمبرد ص ٣٠٢ .

هؤلاء الأغربة حياة تعسة مهينة غير معترف بهم حتى من آبائهم ولا يمارسون إلا أحط الأعمال ، وأهونها شأنا . ومن هؤلاء الأغربة من خرجوا على هذه الأوضاع المهينة وشقوا العصا ورفعوا راية العصيان معتمدين على قواهم الذاتية ، ومن هؤلاء الأغربة المتمردين تألفت جماعة من صعاليك العرب .

ونذكر من بين الشعراء الصعاليك من هؤلاء الأغربة : السليك بن السلكة ، يقول عنه ابن قتيبة انه أحد أغربة العرب وهجنائهم وصعاليكهم » (١) . ويقول عنه المبرد انه « كان من غربان العرب » (٢) .

ومنهم تأبط شرا : الذى يضعه ابن الاعرابى فى نوادره بين أغربة الجاهلية (٣) .

وقد انضمت هذه الطائفة من الصعاليك الأغربة إلى الطائفة السابقة من الصعاليك الخلعاء والشذاذ فى عصبية مذهبية قوامها الغزو والإغارة للسلب والنهب بعيدة كل البعد عن العصبية القبلية معتمدة كل الاعتماد على الشجاعة والقوة والبطولة والإقدام مما هيأهم لأن يقوموا بدور خطير مع بعض الملوك والأشراف ضد أعدائهم يشبه تمـــاما دور الجنود المرتزقة عند الأمم الأخرى (٤) .

---

١ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢١٤ .

٢ ـ الكامل للمبرد ص ٢٩٨ .

٣ ـ المزهر للسيوطى حـ ٢ ص ٢٦٩ .

٤ ـ الشعراء الصعاليك : يوسف خليف . ص ١١٦ .

ويمكننا القول بأن إيمان القبيلة بوحدتها فى المجتمع الجاهلى أسهم فى إيجاد طبقة الخلعاء والشذاذ وأن إيمانها بجنسها أوجد طائفة « الأغربة » وأن المتمردين من هاتين الطائفتين من شتى القبائل قد اجتمعوا فى عصابات من صعاليك العرب تؤمن بعصبية سلوكية قوامها الغزو والإغارة للسلب والنهب ولا تعتقد بعصبية قبلية وهم يعتمدون كل الاعتماد على قوتهم الذاتية وقدرتهم البالغة ، وشجاعتهم النادرة شأنهم فى ذلك شأن المجتمع الذى يعيشون فيه والذى كان يؤمن بالقوة إيمانا جعلها من مقومات حياته مع فارق واضح وهو أن عمل القبائل إجماعى منظم ، وعمل الصعاليك فردى لا نظام له ، معترف به (١) .

وقد انتشر صعاليك العرب فى البادية يقطعون طرقها ، وينهبون ويسلبون ، ويثيرون فى أرجائها الرعب الفزع ، ويغيرون على المناطق الخصبة ويهددون أهلها فى ثروتهم وحياتهم ويعترضون القوافل التجارية حتى لتضطر إلى أن تخرج مسلحة فى حرس شديد أو تحتاج إلى من يجيزها على المناطق الخطرة (٢) .

وهكذا اتخذ صعاليك العرب فى مناطق الخصب فى الجزيرة العربية أهدافا لهم يتجهون إليها ، ومناطق نشاط يعملون فيها .

وهذا هو شاعرهم « تأبط شرا » يكشف أن أهدافه هى تلك المزارع

---

١ ـ تاريخ الشعر السياسى لأحمد الشايب ص ٢٥ .

٢ ـ الشعراء الصعاليك : يوسف خليف ص ٧٤ .

الخصبة حيث الماء والزرع والماشية :

فيوما على أهل المواشي وثارة لأهل ركيب ذى ثميل وسنبل وهذا مو .. السليك بن السلكة .. يخرج فى بعض غزواته يتتبع الأرياف ، قاصدا مواطن الخصب والازدهار فيها ممنيا نفسه ومن معه بغنيمة . ولقد تعرضت مناطق الخصب فى الجزيرة العربية بدون استثناء لغارات الصعاليك .. ومنها : اليمن ونجد ويثرب والوديان المحيطة بها وبعض مناطق السراة .

وقد يتوزع الصعاليك هذه المناطق فيما بينهم ويخص كل منهم بمنطقة لايجوز الاعتداء عليها .. تماما وكما يفعل « الفتوات » و « البلطجية » فى عصرنا الحاضر .. أو كما يفعل المستعمرون .. بلطجية العصر الحديث .. وصعاليكه وفتواته فى تقسيم مناطق النفوذ وتوزيعها فيما بينهم .

وقد تواردت الأخبار بكثرة عدد الخلعاء والشذاذ والذؤبان فى شق القبائل فى « مكة » واتخاذهم منها مركزا يلتقون فيه آمنين على حياتهم [١] حتى إذا ما احتاج إليهم ثائر لغزوة من الغزوات قدم إليهم فيها وواعدهم فى الحرم ثم خرج بهم جنودا مرتزقة . [٢]

ورغم كل الاحتياطات الضخمة ، ووسائل التأمين المختلفة وأساليب الحماية المتعددة للقوافل التجارية المتنقلة فى ربوع الصحراء وفى شتى المناطق فقد تعرضت هذه القوافل بغير استثناء لحركات معادية من جانب طوائف الصعاليك والخلعاء والشذاذ والأغربة والذؤبان بغية النهب والسلب واقتناص

---

(١) تاريخ الطبرى حـ ٢ ص ١٩٨ ومعجم البلدان لياقوت حـ ٨ ص١٣٦ .
(٢) الشعراء الصعاليك ص ١١٦

رزق ساقه الله إليهم فيما يعتقدون فينهبون ما يقدرون على انتهابه ليتقاسموه فيما بينهم، ويشركهم معهم أحيانا أولئك الصعاليك الضعاف والمرضى والمسنين ممن حالت ظروفهم الخاصة دون المشاركة في الغزو والغارة وهم في ذلك يؤمنون كل الإيمان بأن هذا الاغتصاب حق لا يبغون من ورائه سوى المعيش في مجتمع انحرقت فيه موازين العدالة ، واختل التوازن الاقتصادى ..

فالتفرقة بين البشر في الجنس واللون والحسب والنسب والقبيلة وما إلى ذلك تؤدى إلى هذه النظرة القاصرة العشواء والتعامل مع الناس على أساسها مما يؤدى إلى الانحراف عن الحق والعدل والخير .

وهنا نذكر قول الحق تبارك وتعالى « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقول الرسول الكريم : أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب .. لافضل لعربى على عجمى ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى .....» وكذلك اختلال التوازن الاقتصادى مع إهمال مبدأ التكافل الاجتماعى القائم على بذل الأموال وتقديم العون للمحتاجين يؤدى بدوره إلى الإحساس بالضياع والشعور بالظلم والتشيع بالحقد والكراهية والبغضاء وهذه كلها عوامل تخريب وتدمير للمجتمع ... وهنا أيضا نذكر ماجاءت به شريعة الإسلام من الأمر بأداء الزكاة والحث على الإنفاق وبذل الأموال وتقديم العون لكل من هو فى حاجة إلى العون والمساعدة .

شعر الصعاليك : موضوعه وخصائصه :

العرب أمة شاعرة تهدر بالشعر طبائعهم وتشدو به ملكتهم إذا حلوا أو أو ارتحلو في ظعنهم وإقامتهم عند الخوف والطمأنينة في الحرب والسلام .(١)

ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجـــل في حاجته .(٢) وحقيقة أن الشعر قد تهذب وترقى وتطور في زمن لا تعرفه ولا يمكن أن نهتدى إليه لأن العرب لم تساعدهم كتابة ولم يسعفهم تدوين.

وما حاق بالأمم السابقة من أحداث جسام قد عفى على الآثار وأسدل على آدابها وأشعارها ستائر النسيان والزوال .

ومن المقرر المعروف أنه لم يصل إلينا من شعر العرب الأقدمين وآدابهم إلا القليل ، وإن من يستعرض الشعر الجاهلي الذى انتهى إلينا وسلم من الضياع لنزوعه كثرته وكثرة شعرائه ، فما بالنا لو انتهى إلينا كله ؟ !

ويحسب الدارس أن ينظر في الأغانى والأمالى والحماسة والـكامل والمفضليات والأصمعيات وطبقات الشعراء والعمدة وزهر الآداب وغيرها في الكتب ليرى ما نزوعه رؤيته وتزيد من شوقه ولهفته . . وهذا إن دل على شيء فانما يدل على أن العرب أقوى الأمم شاعرية وأشعر الأمم السامية وأن الشعر أصيل فيهم يقولونه بالفطرة والسليقة ويصدرون فيه عن طبع سمح ونفس فياضة وروح صافية وعواطف ملتهبة ومشاعر متألقة .

---

(١) الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام : حسن جاد ، عبد الحميد المسلوت ، محمد عبد المنعم خفاجى ص ١٢٢ .

(٢) ابن سلام الجمحى طبقات الشعراء ص ١٧ .

ولقد كان الشعر في الجاهلية ديوانا للعرب أودعوه وقائعهم ومفاخرهم وأحسابهم وأنسابهم وأيامهم وذكرياتهم وخراطرهم وخلجات نفوسهم وأوصاف بيئتهم . .

وكان للشعر سحره وروعته وتأثيره فى النفوس كما كان للشعراء مكانتهم ومنزلتهم وأقدارهم . . . ولاتزال مصادر الأدب والشعر الجاهلى صورة ناطقة ببلاغتهم وسحرهم وشدة تأثيرهم وجلالة أثرهم فى حياة العرب . والصعاليك باعتبارهم طائفة خاصة فى البيئة الجاهلية لها حياتها ولها عالمها لهم أدب خاص ولهم شعر يعبر عن مشاعرهم وميولهم واحاسيسهم ويصف أحوالهم وأخلاقهم ويصور الأحداث التي تمر بهم والعوارض التي تنتابهم والظروف الصعبة التي تصادفهم .

ونحن إذا أمعنا النظر فيما وصل إلينا من شعر الصعاليك أمكننا أن نلحظ قلته وكثرة الاضطراب فى رواية نصوصه والشك الذى يحيط ببعض هذه النصوص .

فمن حيث القلة فان مردها إلى ضياع جزء كبير من أشعارهم كما هو الشأن فى الشعر الجاهلى عموما . .

يقول أبو عمر بن العلاء :

« ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلة ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير . . »[1] .

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص١٠ والمزهر للسيوطي جـ ٢ ص٩٤ .

أضف إلى ذلك أن نتاجهم إنما هو نتاج طائفة من الشعراء متمردة على قبائلها متشردة في مجاهل الصحراء فليس من شك إذن فى أن كثيرا من الشعراء الصعاليك كان لهم شعر كثير ، وأن هذا الشعر قد ضاع أكثره ..

أورد المرزبانى عن قيس بن الحدادية . . أنه شاعر قـــديم كثير الشعر . . (١) . . ومع ذلك فما انتهى إلينا من شعر قيس ليس بالذى يمكن أن يطلق عليه أنه شعر كثير !!

أما ظاهرة الاضطراب فى رواية نصوص أشعار الصعاليك فهى ظاهرة تلاحظ فى كل نصوص الشعر الجاهلى ولكنها تلاحظ بصورة قوية فى نصوص شعر الصعاليك نظرا للظروف الخـاصة التي كانت تحيط بهم . والملاحظ أن هذا الاضطراب شمل ألفاظ الشعر وترتيب أبياته وعدد هذه الأبيات .

أما بالنسبة للشك الذى يحيط ببعض نصوص هذا الشعر فانه أمر فى الحقيقة خطير لأنه يتصل بالمادة التي ندرسها . . أهى حقـا لأصحابها من الشعراء الصعاليك ، أم هى مختلقة مدسوسة عليهم ؟؟

وشعر الصعاليك ليس بالشعر الفريد الذى اكتنفه الشك فالشعر الجاهلى عموما قد لحقته هذه التهمة : تهمة الانتحال والتزييف .

وعلى كل فان هذا الشك قد اتخذ اتجاهين :

اتجاها انحصر فيه الشك فى نسبة الشعر إلى أى من الشعراء الصعاليك ،

---

(١) معجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٢٦ .

ومعنى ذلك أن الاتفاق منعقد على أنه من شعر الصعاليك ، ومن أمثلة ذلك اليائية التي تنسب مرة لأبي خراش الهذلي ومرة للأعلم الهذلي ومرة لتأبط شرا وكلهم من الصعاليك .

واتجاها آخر تعدى فيه الشك نطاق الشعراء الصعاليك وتجاوزهم إلى إلى غيرهم بمعنى أن الشك يدور حول نسبة الشعر إلى الشعراء الصعاليك أو غيرهم من الشعراء كتلك الأبيات التي تنسب مرة إلى « تأبط شرا » ومرة ثالثة إلى « البعيث » ومرة ثالثة إلى « هدبة العذرى » وقد تناول شعر الصعاليك موضوعات شتى تتعلق بصنعة الصعلكة والظروف المحيطة بها والمبادىء التي يعتنقونها والاتجاهات الخاصة المسيطرة عليهم ، ولذا كان من الطبيعي أن يتناول الصعاليك في أشعارهم : الأحداث التي مرت بهم ، والغارات التي قاموا بها والمغامرات التي احترفوها كما تحدثوا عن ترصدهم وتربصهم بضحاياهم ومراقبتهم لهم ، وأفاضوا في تهديدهم ووعيدهم والتلويح بما لهم من قوة وبأس وصبر وجلد وسلاح وعتاد وحديث عن الرفاق بما فيه من مصطلحات وإشارات ورموز وكما يتناول الشعراء الصعاليك في أشعارهم أحداث الكر والإقدام يتناول أيضا أحداث المخاتلة والفرار والهروب وسرعة العدو وبراعة المروق وحيوية الحركة .

وللشعراء الصعاليك أحاديثهم عن الخيول والجياد وأسمائها وصفاتها واحتقار سرعتها بجانب عدوهم ، وعن صحبتهم للوحوش في فلواتها وحنينهم إليها ، وكان لا بد أن يظهر في الشعر الصعلوكي حديث التشرد والضياع والفقر والأسى والألم والحيرة والاضطراب ومظاهر القلق والتحدي ، بعد ذلك كله كانت تطالعنا بوضوح في أشعارهم خلاصة آرائهم في الحياة

والمجتمع والتحرر من كل القيود والتعبير عن وجهات نظرهم فيما هم فيه وفيما يعنيهم من دنيء الناس والكشف عن المآسى والعقد التي تنطوى عليها نفوسهم وتكنها جوانحهم وتخفيها صدورهم .

وفيما عدا ذلك فقد كان لشعرائنا الصعاليك نفس الأغراض والموضوعات التي كان يتناولها الشعراء الجاهليون باعتبارهم طائفة تحيا فى بيئة جاهلية يخضع أفرادها لنفس الظروف وتسيطر عليهم نفس المشاعر وتوجههم نفس الاتجاهات . وعمـــوما فان شعر الصعاليك كثير : بعضه فى أشخاصهم وبؤسهم ، وبعضه في إنسانيتهم ، وربما كان بنوعيه يصور لنا جانبا كبيرا من جوانب الحياة العربية . (١)

وأول ما يلفت النظر فى شعر الصعاليك (٢) أنه شعر مقطوعات بمعنى أن المقطوعة تذيع فيه أكثر من ذيوع القصيدة ، وهـذه سمة تتفق مع طريقة خطفهم فهم يخطفون في حروبهم ، ويخطفون فى شعرهم ، ولذلك فاننا نرى أنفسنا أمام مجموعة كبيرة من المقطوعات تبتدى بالبيتين وقد تنتهى إلى العشرين بيتا . ولا تفسير لذلك إلا مع افتراض النقص والضياع بمعنى أن القصائد لم تزو كامله فى عدد أبياتها ، وإما أن نقبل حقيقة أن شعرهم فى أغلبية مقطوعات قصيرة من وحى الحياة القلقة المشغولة بالكفاح فى سبيل العيش ومن أجل البقاء .

---

(١) الصعلكة والفتوة فى الإسلام : أحمد أمين ص ٤٣ .

(٢) أنظر هذه الخصائص فى الشعراء الصعاليك الباب الثانى الفصل الثالث .

ومن الخصائص الفنية لشعر الصعاليك الوحدة الموضوعية فان المتأمل في الشعر الصعلوكي يراه وقد اتسم بوحدة الموضوع بحيث يمكننا أن نضع لكل مقطوعة أو قصيدة عنوانا خاصا ينبيء عن الوحدة الموضوعية ووحدة التجربة النفسية ، وحتى القصائد الطويلة فاننا نستطيع أن نرجعها إلى أصل موضوعي واحد تتفرع منه فروع شتى كما تتفرع أغصان الشجرة من جذعها ، وذلك كما ترى في لامية ذى الكلب الهذلى ورائية عروة بن الورد التي يتحدث فيها عن مذهبه في الغزو ودوافعه ، وعن الصعلوك الخامل والصعلوك العامل وميمية أبي خراش التي يتحدث بيها إلى امرأته عن فقره وكرم نفسه وشجاعته .

ومع ذلك فان لبعضهم بعض القصائد التي لا تخضع للوحدة الموضوعية تمشيا مع الشعر التقليدى فى العصر الجاهلى .

ولقد تحرر الشعراء الصعاليك من افتتاحيات النسيب والوقوف على الأطلال وبكاء الديار وذلك يعتبر تمشيا مع الوحدة الموضوعية التي يتسم بها شعرهم ،وبدلا من البكاء والعويل نرى وقفة قوية واثقة فى حديث موجه إلى المرأة المحبة الحريصة على حياة حبيبها الصعلوك لكن صعلوكها المحبوب يأبى إلا أن يكون بطلا قويا مستهينا بحياته فى سبيل أهدافه وغاياته . لنستمع إلى « السليك بن السلكة » يقول :

تحذرنى أن أحذر العام خثعما وقد علمت أنى امرؤ غير مسلم

وهذا عمرو بن براقة يستهل قصيدته الميمية بقوله

تقـــول سليمى لا تعرض لتالفة وليلك عن ليل الصعاليك نائم
وكيف ينام الليل من جـــل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم
غموض إذا عض الكريهة لم يدع له طمعا طـوع اليمين مـلازم
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهـــم قليل إذ انام الخلى المسالم (١)

وعروة بن الورد يعد خير من يمثل هذه الظاهرة :

ذريني ونفسي أم حسان إنني بها قبل أن لا أملك البيع مشترى
أحـاديث تبقي والفتي غـير خالد إذا هو أمسى هامـــة فوق صير
تجاوب أحجار الكناس وتشتكي إلى كل معـروف تراه ومنـكر

ويقول أيضا :

ألم تعلمي يا أم حسان أننـا خليطا زيال ليس عن ذاك مقصر
وأن المنـا تعـز كل منيـــة فهل ذاك عما يبتغي القوم محصر

* * *

وفى هذا الصدد يقول أحمد أمين : (٢)

وقد نلاحظ أنهم ينجافون عن الحب وقل أن نجده فى شعرهم إنما نجد فى شعرهم لخاطبة زوجاتهم بعدم العتب عليهم فى سيرتهم ، وربما كان سبب ذلك أن الحب يبنى على أساسين : حياة مترفة بعض الترف ليست كحياة الصعلكة من بؤس وفقر لأن الحب كالزهرة على المائدة لا ينتفع بها إلا بعد

---

(١) الإمالى : القالى جـ ٢ ص١٢٢ ، الأغانى : الأصفهانى جـ ٢١ ص١١٣
(٢) الصعلكة والفتوة فى الإسلام ص ٤٣ .

القوت ، والثانى أن الحب يحتاج فى أول تكوينه إلى إستقرار والصعاليك أبعد الناس عن الاستقرار .

وتعتبر الواقعية من الملامح المميزة للشعر الصعلوكي فالشعراء الصعاليك يأخذون من الحياة بما فيها من خير وشر مادة لموضوعاتهم مع الابتعاد عن الإمعان فى الخيال إمعانا يخرج بهم عن حدود الواقع فهم يلتزمون بالبيئة البدوية التي تقع تحت أبصارهم وأسماعهم وحواسهم وصفا لها وتجلية لمظاهرها وكشفا لما يحيط بها ، واستيعابا لكل ما ظهر فيها ونشأ عليها وما توارد وتتابع على أرضها من أحداث ،

وهم فى وصفهم للبيئة يعتمدون على الصدق ، ومطابقة الوصف للواقع ، كما يعتمدون على استكمال جوانب الصورة باستيعاب عناصرها وجزئياتها مع الالتزام بالدقة في التعبير والصراحة في التصوير مما ينبيء عن خبرة ودراية واكتمال معرفة .

ومن السمات المميزة للشعر الصعلوكي السرعة الفنية بما فيها من حيوية وتدفق وتتابع إيقاع وسلاسة نبض حتى لكأن المقطوعة الشعرية أشبه ما تكون بشوط من أشواط عدوهم السريع .[1]

ومن مظاهر هذه السرعة الفنية انتشار المقطوعات والقصائد القصيرة ، وتخلصهم من مقدمات النسيب ومن الالتزام بالتصريع فى مطالع النماذج الفنية خروجا على التقليد المعروف فى الشعر الجاهلى . .

---

(١) الشعراء الصعاليك ص ٢٨٩ :

كذلك من مظاهر هذه السرعة قلة الصنعة الفنية في شعرهم فليس من طبيعة الشاعر الصعلوك التأني والروية والتمهل في استكمال مقومات عمله الفني ، فلم يكن الشعر عنده حرفة تقصد لذاتها ، ويتفرغ صاحبها لتجويدها والوصول بها إلى الغاية المثلى ، وإنما يأتي كل شيء هكذا من وحي الفطرة والطبيعة كما هي ، وبكل ما فيها ، وما عليها ، وما أحاط بها بلا تصنع ولا تكلف ولا تزويق .

وهـــذه السرعة الفنية هي في جوهرها استجابة طيعة للطبيعة المواتية والشاعرية السمحة المتدفقة والطبع الأتي الجياش الممعن في فيضة وجيشانه بتأثير لوعة المعاناة ودفق المشاعر وحدة الإحساس وتوتر الوجدان .

والطبيعة المواتية سمة أصيلة من سمات الشاعرية الجاهلية الموهوبة بلا جدال . . وقد ارتبطت هذه السمة لدى الشعراء الصعاليك بحدة العاطفة وثورة النفس وعناء القلق والتحفز للوثوب على الأغراض والمقاصد بجرأة بالغـة وإرادة قوية وهمة جسور وعزيمة لا يعتريها فتور ولذلك كانت هذه السرعة عندهم شكلا فنيا متميزا ونمطا إبداعيا بارزا ومذهبا تلتقي فيه شاعريتهم بأدق سماتها وأوفى ملامحها .

وفيما يتعلق بالخصائص اللغوية للشعر الصعلوكي فان ما نلحظه على لغتهم أنها لغة العصر الجاهلي بمـا لها من خصائص وما تمتاز به من سمات ، وغاية ما في الأمر أن لغة الشعراء الصعاليك أقرب إلى الفطرة وأصدق تمثيل للغة العربية في بيئاتها ومنابعها الأصيلة بمـا تحويه من مادة لغوية ذاخرة كما أن

لغتهم أكثر احتواء على الغريب الشاق المحوج للرجوع إلى المعاجم المطولة احتماء من هذه الحوشية البدوية في شواردها وأوابدها لنستمع إلى شاعرهم « تأبط شرا » يقول :

وحثحثت مشعوف النجاء كأنني ... هجف رأى قصرا سمالا وداجنا
من الحص هزروف كأن عفاءه ... إذا إستدرج الفيفا ومد المغابنا
أزج زلوج هـــذرفي زفازف ... هزف يبذ الناجيات الصوافنا[1]

ولنتأمل قول الأعلم :

فشايع وسط ذودك مستقنا ... لتحسب سيدا ضبعا تنول
عشـنزرة جواعرها ثمـان ... فويق زماعها خدم حجول
نزاها الضبع أعظمهن رأسا ... جراهمة لهـا حرة وثيل[2]

---

١) الأغاني حـ ١٨ ص٢١٣ . حثحثت : حركت بسرعة الحص جمع أحص وهو قليل شعر الرأس ـ هزروف : الطليم السريع الخفيف ـ المغابن جمع مغبن وهو الإبط ـ أزج : بعيـــد الخطوزلوج : ناج من الغمرات ـ هذرفي من الهذرفة وهي السرعة زفازف من الزفزفة وهي بسط الطائر جناحية أورمية بنفسه هزف : سريع ـ الناجيات الصوافن : الخيل السريعة .

٢) شرح أشعار الهذليين حـ ص ٦٣ وما بعدها .
والعشنزرة الغليظة المسنة والزماع جمع زمعة وهي شعرات خلف ظلف الشة والخدم جميع خدمة وهي لون يخالف سائر لون رجلها مثل الخلخال .

ولنصغ إلى أبي الطمحان في قوله :

فأصبحن قد أقهين عني كما أبت حياض الإمدان الهجان القوارح

وباستقراء أشعار الصعاليك وتتبعها نرى أن الأوزان التي صاغ فيها الشعراء الصعاليك شعرهم هي نفس الأوزان التي عرفت عند سائر الجاهليين مع التزامهم الغالب « بالقبض » في بحر الطويل ، وإسقاط أول الوتد المجموع من « فعولن » وتحويله إلى « فعلن » ، وهذه أمور شائعة في الشعر الجاهلي .

كما يمكننا أن نرى بوضوح انتشار الرجز في الساعات الخرجة وقبل المصارع نظرا لسهولة هذا الوزن وتوافقه مع حركات القتال .

ومما تجدر الإشارة إليه في مجالي الخصائص الفنية للشعر الصعلوكي ظاهرة التحلل من الشخصية القبلية وظهور الوضوح الفني لشخصية الشاعر الصعلوك الأمر الذي جعل من أشعار الصعاليك ظاهرة فنية مميزة بين الشعر الجاهلي [١].

كذلك مما نشير إليه في هذا المجال بروز عنصر الحكاية والنزعة القصصية في أشعار الصعاليك ، فلقد كانت حياتهم الحافلة بالأحداث المثيرة مادة خصبة لشعرهم الذي أخذوا يسجلون فيه أحداث هذه الحياة وقصص هذه المغامرات ليمكننا القول بأن كل مقطوعة جديرة بأن توضع تحت عنوان قصصي مثير ، حيث تتجلى فيها غرابة الحدث وإثارته ، وبراعة التحليل النفسي ودقته ، وجودة التصوير وروعته ، وقوة التعبير وسلاسته وما بائية الأعلم الهذلي التي يقول فيها :

---

١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي لأحمد حمد الحوفي ص ٢٣٤ .

لما رأيت القوم بالعليا ٠ دون قدى المناصب

إلا قصة نفسية تحليلية دقيقة لشخصية الهارب المذعور والمطارد الطامع في إدراكه ، والخوف من الموت ، والحرص على الحياة [١] .

وجملة القول فقد كان الصعاليك في أشعارهم خير مثال لتصوير حياتهم في بساطة وحماس وإخلاص والتعبير عن آرائهم واتجاهاتهم ومبادئهم بلا غموض أو التواء في صراحة دونها أى صراحة ، ووضوح يسمو فوق كل وضوح .

ومن هنا كان شعر الصعاليك مميزا بخصائصه فريدا بملامحه ، أصيلا بمقوماته ، رائعا بفضاحته وبلاغته ، غنيا بموضوعه ومادته .

---

١) شرح أشعار الهذليين ـ السكرى حـ ١ ص ٥٥ ـ ص ٦٠ بائية الأعـــلم .

أشهر الشعراء الصعاليك ونماذج من أشعارهم :

كما قلت فان الصعاليك باعتبارهم طائفة خاصة في البيئة الجاهلية لها حياتها ولها عالمها ودنياها فان لهم أيضا أدبا خاصا ، وشعرا متميزا يعبر عن مشاعرهم وميولهم وأحاسيسهم ، ويصف أحوالهم وأخلاقهم ، ويصور الأحداث التي تمر بهم ،والعوارض التي تنتابهم والظروف الصعبة التي تصادفهم .

وقد أجاد الشعراء الصعاليك وبرعوا في عرض مشاعرهم وأحاسيسهم ، واستطاعوا حقيقة أن يسلطوا الاضواء على لون من الشعر الجاهلي له خصائصه الفنية الذاتية وملامحه المميزة ... ونذكر من هؤلاء الشعراء :

عروة بن الورد ـ وتأبط شرا ـ والشنفرى والسليك بن السلكة ـ وقيس ابن الحدادية ، وأبو الطمحان القيني ـ وأبو خراش الهذلي ـ وصخر وعمرو بن براقة الهمداني ، وعمرو ذو الكلب ـ وحاجر والأعلم الهذلي ـ والأحيمر السعدي ـ وفضالة بن شريك ....

عروة بن الورد :

أما عروة فهو صعلوك من أشرف الصعاليك يعيش لغيره أكثر مما يعيش لنفسه ، ويبذل كل شيء في سبيل الغير .

وهو : عروة بن الورد بن عمرو بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هريم ابن لديم بن عوذ بن غالب بن قطيعة بن عبي .. (١)

أما صعلكته فعن حاجة وفقر وعن رغبة في إغاثة ذوى الحاجة ، وهو يعمل ما استطاع العمل ويسعى بنشاط في سبيل أهدافه ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة وهو لا يرهب الموت في سعيه بل يراه أجمل من أن يعجز عن دفع النوازل وإبعادها عن الناس وأدبه إنساني في عاطفته وغاياته وسمو أهدافه ، رائق معجب في انماطه وأساليبه .

وهو يروقنا بعاطفته ، ولا سيما بنزعته الإنسانية السامية المرتكزة على محبة الغير والحدب على ذوى البؤس ، أما لغته فأقل خشونة لما في عاطفته من ليونة وسماحة ، وأما حكمته فطبيعية مستحبة وإن لم تخل من شراسة فيما تدعو إليه .

وشعر عروة مرآة لنفسه الصافية ومبادئه التي أخذ بها نفسه شجاعة وإقداما وكرما وسماحة ونبلا وشهامة . . .

وكان المقدمون في خلفاء بني أمية يعجبون به ويذكرونه بالشرف والتقدم في الجود . .

---

(١) الأغاني لابي الفرج الأصفهاني حـ ٣ / ص ٧٣ .

قال معـــاوية .. لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم .. !!!

وقال عبد الملك بن مروان .. من زعم أن حاتما أسمع الناس فقد ظلم عروة بن الورد ..

وقال .. ما يسرنى أن أحدا فى العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة بن الورد لقوله :

إنى أمرؤ عافى إنائى شركة وأنت أمرؤ عـافى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح المـاء والمـاء بارد[1]

وكان عروة حدبا على عشيرته عطوفا على الضعفاء والمرضى وذوى الحاجات .

يروى الرواة أن عروة بن الورد كان إذا أصابت الناس سنة شديدة ، وتركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، كان يجمع أشباه هؤلاء فى دون الناس من عشيرته ، ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم ومن قوى منهم خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيبا ، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا ، وذهبت السنه ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه فى غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى ولقـد كان الفقر فى نفس عروة شيطـانا مريـدا يروع منظـره

«١» الأغانى حـ ٣ ص ٧٤ وفراح الماء : الماء الخالص الذى لم يخالط

هذا الشاعر ويأخذ عليه المسالك فهو يريد أن يقرر شفاعقه فى قلوب الناس حتى يطاردوا هذا اللعين الذى يحول بينهم وبين المجد ويعرضهم للهوان والذل :

ومن يفتقر فى قومه يحمد الغنى وإن كان فيهم واسط العم مخولا
ويذرى بعقل المرء قلة ماله وإن كان أسرى من رجال وأحولا

وكما قلت فان عروة لم يكن يطلب المال ليكنزه ، ولا ليكاثر الناس به ، ولكن لينفقه فيما يعقب الحمد ، ويورث المجد .

ذريني للغنى أسعى فانى رأيت الناس شرهم الفقير
وأهونهم وأحقرهم لديهم وإن أمسى له كرم وخير
ويقصى فى الندى وتزدريه حليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ولكن الغنى رب غفور . (١)

ويقول عروة :

أقلى على اللوم يا ابنة منذر ونامى فان لم تشتهى النوم فاسهرى
ذريني ونفسى أم حسان إننى بها قبل ألا أملك البيع مشترى
وأحاديث تبقي والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامة فوق صير
ذريني أطوف فى البلاد لعلني أخليك أو أغنيك عن سوء محضر
فان فازسهم للمنية لم أكن جزوعا وهل عن ذاك من متأخر

---

(١) البيان والتبين للجاحظ حـ١ ص٢٣٤ .

وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد لكم خلف أدبار البيوت ومنظر[1]

ويخاطب عروة زوجته بأنه يجوب البلاد ليغتني فيتحمل حقوقا يعجزه الفقر عن تحملها وأنه يتألم أن تنزل نازلة بمن يعنى بهم ولا يستطيع أن يقدم إليهم مساعدة .

دعيني أطوف في البلاد لعلني أفيد غنى غنى فيه لذى الحق محمل
أليس عظيما أن تلم ملمسة وليس علينا في الحقوق معول

ويذم عروة بن الورد الصعلوك المتكاسل الخامل الذى يقنع بأن يعرف العظم ويجلس حول المجازر ويقنع بأن يملأ بطنة وينام نوما عميقا ويخدم نساء الحى لأنه لا عمل له ، فاذا ما أتى الليل صار هزيلا منكسرا .. ويمدح الصعلوك المشرق الوجه الذى يغامر فان قتل كان مشكورا مذكورا بالجرأة وإن غنم كان بالغنيمة جديرا :

لحا الله صعلوكا إذا جن ليله مصافي المشاش آلفا كل مجزز
يعد الفتي من نفسه كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح ناعسا يحث الحصا عن جنبه المتعفر
يعين نساء الحى ما يستعنه ويمسى طليحا كالبعير المحسر
ولكن صعلوكا صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مطلا على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر
وإن بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المتنظر
فذلك إن يلق المنية يلقها حميدا وإن يستغن يوما فأجدر

«١» ديوان عروة ١٣ . جمهرة أشعار العرب ٢١٤ .

أيهلك معتم وزيد ولم أقم على ندب يوما ولى نفس مخطـر
ستفزع بعد اليأس من لا يخافنا كواسـع فى أخرى السوام المنفر
نطاعن عنها أول القوم بالقنا وبيض خفـاف ذات وقـع مشهر
فيوما على غارات نجد وأهله ويوما بأرض ذات شت وعرعر
يناقلن بالشمط الكرم أولى النهى نقـاب الحجاز فى السريح المسير
يربح على أضيـــاف ماجد كريم ومالى سارحا مال مقتر .(١)

* * * *

«١» ديوان عروة بن الورد ص١٥ ، جمهرة أشعار العرب ص ٢١٤ والحماسة لأبى تمام حـ١ ص ١٦٥ . لحاه الله : قبحه ولعنه ـ المشاس : رؤس العظام اللينة المجزر : موضع الجزر ـ قرآها : طعامها ـ ميسر : غنى كثرت إبله ـ يحث : يحرك ـ الطليح . المعى وكذلك المحسر القابى : الذى يقبس النار أو يأخذها والمتنور المضىء المنيح : قدح سريع الخروج ولا نصيب له والمشهر المشهور يريد أنهم يصلحـون ؟ كما يزجرا القـــدح إذا ضـــرب ـ تشوف : تطلع ـ المتنظر : المنتظر قدومه معتم وزيد : بطنان من عبس ـ ندب : خطر ـ كواسع : خيل تطرد إبلا وتكسفها والسوام لإبل السائمة ، أخرى السوام : آخره والمنفر المذعور والبيض الخفاف: السيوف والشت والعرعر من أشجار البادية يريد أنهم يهجمون تارة فى الحجاز وتارة في نجد وكل ذلك حتى يغنم مايقدمه لضيفاته ويربح على : يرد على والماجد الكريم يعنى نفسه ومالى يقصد إبله وسارحا : سائما فى المراعى ومال مقتر أى مال فقير مقل فهولا يبقي على شىء فى يده .

وفي مختارات أبي تمام له في باب الحماسة :

فلت لقوم في الكثيف تروحوا عشية بتنا عنـــدما وان رزح
تنالوا الغنى أو تبلغوا بنفوسكم إلى مستراح من حمام مبرح
ومن يك مثلي ذاعيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة وتبلغ نفسي عذرها مثل منجح (١)

* * * *

(١) الحماسة لأبي تمام حـ١ ص٤٦٤

تأبط شرا : ثابت بن جابر بن سفيان الفهمى

والشاعر تأبط شرا هو ذلك العربى الجاهلى ذو النفس العربية الأصلية التى ما تعلمت بعد أن تموه الحقيقة بالصيغة والكذب فالحياة عنده هزء بالحياة وتعلق بها ، وكرامة تحفظ ومال يبذل وحرية تقدس ويد تمتد ، وانطلاق من غير انكفاء فى جو من الاطمئنان والحذر واللاوعى الحازم . وهو أحد أغربة العرب إذ كان ابن أمة حبشية سوداء . ويمتاز أدبه بخشونة فى المعانى والمبانى وتصوير حسى صادق ونفس مكسوة بألفاظ وألفاظ تتراءى فيها العادات والنفسيات وسذاجة فطرية حلوة ، وجو صحراوى يضطرب فيه حيوان الصحراء ونبتها وغيثها وبرقها وتصطحب فيه الشراسة والرقة وتدفق طبيعى على غير نظام اللهم إلا نظام الطبيعة الفطرية وأوزان مستقيمة ، وقوافٍ شديدة تتصاعد من خلالها موسيقى الصحراء ذلك هو أدب الصحراء وهو يروق من حيث ينفر ، ويخاطب النفس من حيث يلتصق بالمادة . . . هو أدب اعترافى قصصى ، هو أدب النفس والقلب وإن تسربل الأشواك والتحف بالرمال والنبال .

ولنستمع إلى « تأبط شرا » فى مقطوعة له عن مغامرة طريفة من مغامراته أفلت فيها من هلاك محقق ويبدأ مقطوعته بأبيات فى الحكمة يودعها خلاصة تجربته فى الإستعانة بالحيلة وحساب الأمور :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده ... أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا ... به الخطب إلا وهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ما عاش حول ... إذا سد منه منخر جاش منخر

أقول للحيان وقد صفرت لهم وطابى ويومى ضيق الجحر معور
هما خطتا إما إسار ومنة وإما دم والقتل بالحر أجدر
وأخرى أصادى النفس عنها وإنها لمورد حزم إن فعلت ومصدر

* ٥ *

فرشت لها صدرى فزل عن الصفا به جؤجؤ عبل ومتن مخصر
فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا به كدحة والموت حزيان ينظر
فأبت إلى فهم ولم أك آيبا وكم مثلها فارقتها وهى تصفر (١)

* ٥ ٥

وهذه أبيات له يصور فيها لقاءه بالجن والغيلان :

وأدهم قد جبت جلبابه كما اجتابت الكاعب الخيعلا
إلى أن حدا الصبح أثناءه وفرق جلبابه الأليلا
على شيم نار تنورتها فبت لها مدبرا مقبلا
فأصبحت والغول لى جارة فيا جارتا أنت ما أهولا
وطالبتها بضعها فالتوت بوجه تغول فاستغولا

---

(١) شرح حماسة أبى تمام للتبريزى جـ ١ ص ٣٨ وما بعدها ، خزانة الأدب للبغدادى ٣ / ٣٥٧ وما بعدها ـ قريع الدهر : المجرب البصير ـ وسد منخر يعنى ضيق الأمر ولحيان بطن من هذيل والوطاب سقاء اللبن والمراد إشرافه على الهلاك بسببهم ومعور بأى مكشوفة عورته للعدو، الصفا الصخر الأملس والجؤجؤ الصدر والعبل الضخم .

فقلت لها يا انظرى كي ترى فـولـت فكنت لهـا أغـولا
فطار بقحف ابنـه الجن ذو سفاسق قـد أخلق المحمـلا
إذا كل أمهيته بالصفـا فحد ولم أره صيقـلا
عظاية فقر لها حلتـا ن في ورق الطلـح لم تغزلا
فمن سال اين ثوت جارتى فان لها رباللوى مـنزلا(١)

* * * *

وأبيات أخرى يفتخر فيها بسرعته التي أنجته من أعدائه وخيولهم السريعة :

ليلة صاحراو اغرو ابى سراعهم بالعيكتين لدى معدى ابن براق
كأنما حتحثو احصا قوادمه أو أم خشف بذى شث وطباق
لاشيء أسرع مني ليس ذاعذر وذ اجنـاح بجنـب الريـد خفـاق
حتي نجوت ولما ينزعوا سلبي بواله من قبيض الشد غيداق(٢)

* * * *

«١» الأغاني حـ١٨ ص ٢١٠-٢١٣ الخزانة حـ٣ ص ١٠٨ الخيل ثوب كالقميص والغطاية دويبة كسام أبرص .

«٢» المفضليات ٧-١١ العيكتان : اسم موضع - حتحثوا : حركو من الحث القوادم : ما بلى الرأس من ريش الجناحين والحص التي تناثر ريشها وتكسر وهذه دلالة على السرعة والخفة والمراد بقوله : «حصا قوادمه» الظليم وهو ذكر النعام - الخشف : ولد الظبية وأم الخشف الظبية والشث والطباق نبتان من نبت السراة يصيبان الماشية بالضمور - العذر : ما أقبل=

ويقول متحوثا عن نفسه :

يبيت يمقق الوحش حتى ألفنه ويصبح لايحمى لها الدهر مرتعا
رأين فتى لاصيد وحش يهمه فلو صافحت إنسا لصافحنه معا (١)

وتأبط شرا عظيم الاعتزاز بصعاليكه الممتازين يباهي بهم ويبكيهم إن فقدوا.

لكنما عولى ان كنت ذا عول على بصير بكسب الحمد سباق
سباق غايات مجد فى عشيرته مرجع الصوت هدا بين أرقاق
عارى الظنابيب ممتد نواشره مدلاج أدهم واهى الماء غساق
جهال ألويه ، شهاد أندية قوال محكمة ، جواب آفاق
فذاك همى وغزوى استغيث به إذا استغثت بضافى الراس نغاق (٢)

= من شعر الناصية على الوحه ويعني بقوله « ذا عذر » فرسار الريد : حرف الجبل الذى يشرف على الهواء ـ الواله : الذاهب العقل فليس يستبقى من جهده فى عدوه شيئا ـ القبيص السريع والشد العدو والغيداق . الكثير الواسع.

«٣» الأغانى حـ ١٨ ص ٢١٧ .

المفضليات ١٣ ـ ١٥ والعول : الاعوال ـ مرجع الصوت اى يصيح بأصحابه آمرا وناهيا ـ هدا : الهد الصوت الغليظ الظنابيب : جمع ظنبوب وهو حرف عظم الساق والمراد انه خفيف اللحم والنواشر عروق ظاهر الذراع والمراد انه طويل الذراعين دلالة على تمام خلقه ـ الأدهم : الليل والغساق الشديد الظلمة والمحكمة : الكلمة الفاصله القاطعة للأمور ضافى الراس كثير شعر الراس لكثرة اشتغاله بالغزو وفهو لايتعاهده والنغاق الذى يصيح في إثر الطرائد .

السليك بن السلكة :

ونمضى مع شعرائنا الصعاليك فى نماذج من أشعارهم تصور حقيقة تلك الملامح المميزة للشعر الصعلوكي كما عرضتها ... وهاهو ذا السليك بن السلكة يسجل مغامرة له فتك فيها بأحد الرجال واستاق إبلاله ويحدثنا حديثا عميقا عن ألمه وجوعه وفقره وما كاد يشرف عليه من هلاك :

وعاشية راحت بطانا ذعرتها ... بسوط قتيل وسطها يتسيف
كأن عليه لون برد محبر ... إذا ما أتاه صارم يتلهف
فبات له أهل خلاء فناؤهم ... ومرت بهم طير فلم يتعيفوا
وباتوا يظنون الظنون وصحبتى ... إذا ما علوا نشزا اهلوا واوجفوا
وما نلتها حتى تصعلكت حقبة ... وكدت لأسباب المنية اعرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرنى ... إذا قمت تغشانى ظلال فأسدف (١)

* * * *

ونراه فى موطن آخر يفخر باقدامه وجراته :

الا عتبت على فصارمتنى ... واعجبها ذو اللمم الطوال
فانى يا ابنة الأقوام اربى ... على فضل الوضىء من الرجال
فلا تصلى بصعلوك تئوم ... إذا امسى يعد من العيال
ولكن كل صعلوك ضروب ... بنصل السيف هامات الرجال (٢)

* * *

---

(١) الأغانى حـ ١٨ ص ١٣٤ . ص ١٣٥ .
(٢) الكامل للمبرد ص٢٩٧

أبو خواش الهذلى :

والشاعر الصلوك « أبو خراش الهذلى » يقدم صورة نبيلة للجوع الذى يطيل حبسه حتى يمله فيمضى عنه دون أن يلحقه منه عار :

وإنى لأثوى الجوع حتى يملنى ... فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جرمى
وأغتبق الماء القراح فأنتهى ... إذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم
أرد شجاع البطن قد تعلمينه ... وأوثر غيرى من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة ... والموت خير من حياة على رغم(١)

* * *

ويتحدث أبو خراش عن تربصه وترقبه فى سواد الليل رافضا تلك الراحة البغيضة التى ينعم بها الضعفاء ونراه حريصا كل الحرص على تمجيد رفيق له من الصعاليك كان شريكا له فى المغامرة :

لست لمرة إن لم أوف مرقبة ... يبدو لى الحرف منها والمقاضيب
فى ذات ريد كذلق الفأس مشرفة ... طريقها سرب بالناس دعبوب
لم يبق من عرشها إلا دعامتها ... جذلان : منهدم منها ومنصوب
بصاحب لا تنال الدهر غرته ... إذا افتلى الهدف القن المعازيب
بعثته بسواد الليل يرقبنى ... إذ آثر النوم والدفء المناجيب
يظل فى رأسها كأنه زلم ... من القداح به ضرس وتعقيب
سمح من القوم عريان أشاجعه ... خف النواشر منه والظنابيب (٢)

---

١) ديوان الهذليين : السكرى حـ ٢ ص ١٢٧ ، الأغانى حـ ٢١ ص ٦٠
أثوى : أطيل حبسة المزلج : البخيل .

٢) ديوان الهذليين : السكرى حـ ٢ ص ١٥٩ ، ص ١٦٠ ، ص ١٦١ .

الأعلم الهذلى :

وها هو ذا الأعلم الهـذلى يقدم لنـا صورة طريفة لغنى سمـين مترف قد سمنته امرأته وصنعته على يدها لكنه جبان ضعيف رعديد :

أيسخط غزونـا رجـل سمين ... تـكننـه الستـارة والكنيف
ولو رفعت ثوبـك فى خروق ... تروعك فى مهالكها الشدوف
تخـاف لزام عاديـة ثعـول ... كما يتفجر الحوض اللقيـف
إذن لذكرت حالك غير عصر ... وأفسد صنعها فيك الوجيف [1]

* * *

ولنستمع إليه فى وصف مغامرة جريئة يعدو فيها طلبا للأمن والسلامة ومن خلال عدوه يعطينا صورا متلاحقة متتابعة [2] :

لمـا رأيت القوم بالعليـاء دون ... قدى المنـاصب
وفريت من فزع فـلا ... أرمى ولا ودعت صـاحب
يغرون صاحبهم بنـا ... جهـدا وأغرى غـير كاذب

١» شرح أشعار الهذليين : السكرى حـ ١ ص ٦٨ ، ص ٦٩ .

٢» القدى : القدر ـ المناصب : الرامى الذى يناصبك الرمى ـ فريت : تحيرت ودهشت ـ الحلائب : الجماعات يجيء بعضها فى إثر بعض والضريبة السيف المربة المقيمة على لحم أبدا ـ مجرية : ضبع ذات جراء ـ حواشب : منتفخات البطون يوم حق ذائب : شديد الحر المناقب : أماكن التوالب : الجحاش الصغار .

أغـرى أبا وهب ليعـــــ جزهم ومدوا بالحـلائب
وخشيت وقـــــع ضريبـة قد جربت كل التجـارب
فأكون صيـدهم بهـــا وأصـير للضبع السواغب
جزرا وللطير المربـــــ ـه والذئـــاب وللثعالب
وتجر مجرية لهـــــا لحمي إلى أجر حواشب
حتى إذا انتصف النهـــا روقلت يوم حق ذائب
رفعت عيني الحجـــــا ز إلى أنـــاس بالمناقب
وذكرت أهـــــــلي بالعراء وحاجة الشعث التوالب
المصير مين من الـــلا د اللاحـين إلى الأقارب (١)

* * *

وكما تحدث الأعلم الهذلى عن سرعة عدوه وفراره تحدث حاجز إلى صاحبته الجميلة فى نفس الموضوع :

ألا هل أتى ذات الخواتم فرتى عشية بين الجرف والبحر من بعر
عشية كادت عامر يقتلوننى لدى طرف السلماء راغية البكر
فما الظبي أخطت حلقة الظفر رجله وقد كاد يلقى الموت في حلقة الظفر
كمثلى أوان القوم بين مغيع وآخر كالنشوان مرتكز يغرى (٢)

* * *

ويصرح حاجز بأن الفضل فى نجاته من بعض المواقف الحرجة يرجع إلى سرعة عدوه وإلى رجليه السباقتين :

---

(١) شرح أشعار الهذليين حـ ١ ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) الأغانى حـ ١٢ ص ٥٢ .

ففير قتالى فى المضيق أغاثنى ولكن بذلى الشد غير الأكاذب
فدالكما رأجى أمى وخالتى بشد كما بين الصفا والأثائب (١)

* * *

وفى موقف آخر نراه يعلن ولاءه مفتخرا ببنى مخزوم من قريش دون قومه من الأزد بنى سلامان فهم أهل النصرة والشجاعة :

قومى سلامان إذا ما كنت سائلة وفى قريش كريم الحلف والنسب
إنى متى أدع مخزوما ترى عنقا لا يرعشون لضرب القوم من كثب (٢)

---

١) الأغانى حـ ١٢ ص ٥٢ .
٢) الأغانى حـ ١٢ ص ٤٩ .

صخر الغي الهذلي :

وشاعر آخر من الشعراء الصعاليك وهو « صخر الغي الهذلي » نستمع إليه وهو يتهدد ويتوعد « تأبط شرا » أو ابن ترنى كما يسميه :

فان ابن ترنى إذا جئتكم أراه يدافع قولا عنيفا
قد أفنى أنامله أزمه فأمسى بعض على الوظيفا
فلا تتعدن على زخة وتضمر فى القلب وجدا وخيفا
ولا تقدمن على خطة تكون إذن لك حتفا ذفيفا
ولا أبغيتك بعد النهى وبعد الكرامة شرا ظليفا
ولا أرقعنك رقع الصمر يع لاءم فيه الصناع الكتيفا (١)

* * *

وله أيضا وصف صاحب له بشدة العدو :

معى صاحب واجن بالغزا ة لم يك فى القوم وغلا ضعيفا
ترى عدود صبح إقوائه إذا رفع المأبضان الحشيفا
كعدو أقب رباع ترى بفائله ونساه نسوفا (٢)

* * *

ونراه يصف السيف وصفا دقيقا فيقول :

وصارم أخلصت خشيبته أبيض مهو فى متنه ربد
فلوت عنه سيوف أريح إذ باء بكفى ولم أكد أجد
فهو حسام تتر ضربته ساق المذكي فعظمها قصد

---

١) شرح أشعار الهذليين حـ ١ ص ٤٦ ، ص ٤٧ .
٢) شرح أشعار الهذليين حـ ١ ص ٤٨ .

عمرو ذو الكلب :

أما عمرو ذو الكلب فانه يعلنها حربا شعواء على أعدائه :

فان أثقفتموني فاقتلوني وإن أثقف فسوف ترون بالى
فأبرح غازيا أهدى رعيلا أؤم سواد طود ذى نجال
ويبرح واحد واثنان صحبى ويوما فى أضاميم الرجال
بفتيان عمارط هذيل هم ينفون آناس الحلال
وأبرح في طوال الدهر حتى أقيم نساء بجلة بالنعسال [1]

* * *

ونراه متربصا يتخفى ويتحدر فى مرقبة له :

ومرقبة يحار الطرف فيها تزل الطير مشرفة التذال
أقمت بريدها يوما طويلا ولم أشرف بها مثل الخيال
ولم يشخص بها شرفي ولكن دنوت تحدر الماء الزلال [2]

* * *

ولنستمع إليه وهو يصف نصال سهامه التى يكمن فيها الموت :

وتجرا كالرماح مسيرات كسين دواخل الريش النسال
وفى قعر الكنانة مرهقات كأن ظباتها شوك السيال [3]

١» شرح أشعار الهذليين حـ ١ ص ٢٣٣ ، ص ٢٣٤ .
٢» شرح أشعار الهذليين حـ ١ ص ٢٣٧ .
٣» شرح أشعار الهذليين حـ١ ص ٢٣٥ .

عمرو بن براقة :

وشاعرنا الصعلوك عمرو بن براقة نستمع إليه فى حديث له مع صاحبته يشيد بالبطولة والإقدام والمغامرة :

تقول سليمى لا تعرض لتلفة ... وليلك عن ليل الصعالك نائم
وكيف ينام الليل من جل ماله ... حسام كلون الملح أبيض صارم
غموض إذا عض الكريهة لم يدع ... له طمعا طوع اليمين ملازم
ألم تعلمى أن الصعاليك نومهم ... قليل إذا نام الخلى المسالم (١)

* * *

إذا الليل أدجى واكفهرت نجومه ... وصاح من الإفراط هام جوائم
ومال بأصحاب الكرى غالباته ... فانى على أمر الغواية حازم
كذبتم وبيت الله لا تأخذونها ... مراغمة ما دام للسيف قائم
كأن حريما إذ رجا أن يضمها ... ويذهب مالى يا أبنة القوم حالم
متى تجمع القلب الذكي وصارما ... وأنفا حميا تجتنبك المظالم
ومن يطلب المنعم بالقنا ... يعش ذا غنى أو تخترمه المخارم (٢)

* * *

١) الأمالى لأبى على القالى حـ ٢ ص ١٢٢ والأغانى جـ ٢١ ص ١٧٥ .
٢) الأغانى ٢١ / ١١٣ .

الشنفـرى :

هو شاعر قحطانى جاهلى من الأزد ، وهو كما تحدثنا المصادر المختلفة من بنى الحارث بن ربيعة بن الأواس ابن الحجر ، ويعرف باسم الشنفرى .

ومعنى « الشنفرى » الأسد ، أو الجمل الكثير الشعر وقال التبريزى : إنه من قولهم « فى رأسه شنفارة » أى نشاط وحدة ، أو هو من قولهم « أذن شفارية » أى كثيرة الشعر والوبر ، أو قولهم « ضب شفارى » أى طويل ضخم ، أو من قولهم « شفر الرجل إذا أقل العطية ، أو شفر المال إذا قل، وقيل أن فى معانى لفظة الشنفرى : الرجل الغليظ الشفتين . (١)

ولقد اختلف فى أسمه فقيل إن اسمه « ثابت بن أوس » وقيل « عمرو بن مالك » وقيل « شمس بن مالك » وقيل ليس له اسم !!! .

وكان هو وثابت بن جابر « تأبط شرا » وعمرو بن براقة أعدى العدائين في العرب ، وإن جرى المثل بالشنفرى فقيل « أعدى من الشنفرى» .

وقد عاش صعلوكا ولصا مرهوب الجانب لا معتصم له سوى الجبال يغير ثم يأوى إليها .

ويروى أبو الفرج الأصفهانى أن الشنفرى لما كان صغيرا وقع فى الأسر مرة ، وأسره بنو شبابة وهم حى من فهم بن عمرو بن قيس عيلان ، فلم يزل

---

١) أعجب فى شرح لامية العرب الزفحشرى ص ٢١ وخزانة الأدب للبغدادى ج . ص ١٦ .

فيهم حتى أسر بنو سلامان بن مفرج رجلا من فهم وأحد بنى شبابه فقداه بنو شبابة بالشنفرى وظل فى بنى سلامان زمنا . . . (١)

ولقد نشأ الشنفرى فى بنى سلامان وعلى عينيه غشاوة عن حقيقة وضعه ظانا أنه ابن لذلك الرجل الذى تبناه فكان له أبا إذ توسم فيه النجابة والرجولة وتوطدت الأواصر بينه وبين قعسوس ابنة الرجل . . . وحدث شىء ما اختلقت فيه الروايات لكنه ينتهى إلى أمر واحد هو أن الشنفرى علم حقيقة أصله ، وضاق صدره ، وكبر على نفسه الأمر :

ألا ليت شعرى والأمانى ضلة ... بما ضربت كف الفتاة هجينها
ولو علمت جعسوس أنساب والدى ... ووالدها ظلت تقاصر دونها
أنا ابن خيار الحجر بيتا ومنصبا ... وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها

وقد قيل إن الرجل زوجه ابنته لكن قومه بنى سلامان قتلوه وهنا هب الشنفرى للانتقام وفاء بوعده إذ قد حلف ليقتلن مائة رجل من بنى سلامان لو حدث اعتداء على حميه والد زوجته . . فعاش فى الصحراء مع المغامرين وتصعلك وأخذ يغزو بنى سلامان ويقتلهم حتى وصل عدد القتلى إلى تسعة وتسعين . . ثم احتالوا عليه فأمسكه رجل منهم عداء هو « أسيد بن جابر » ثم قتله وتركت جثته فى العراء حتى تمزقت أوصالها وقد مر بها رجل من بنى سلامان فرفس جمجمته فدخلت شظية منها برجله فمات بسببها فبذلك تمت القتلى مائة .

---

١) الأغانى جـ ٢١ . ص ١٤٢ .

وأيا كان الأمر فان هناك روايات كثيرة مختلفة لـكنها تشير إلى أن سبب تصعلكه إنما هو فقده للتوافق الاجتماعى وشيوع الرق والعبودية والظلم فى المجتمع الجاهلى .

فقد روى ابن الأنبارى أن السبب في غزو الشنفرى الأزد وقتلهم أن رجلا منهم وثب على أبيه فقتله والشنفرى صغير ، فلما رأت أم الشنفرى أن ليس يطلب بدمه أحد ارتحلت به و بأخ له أصغر منه حتى جاورت فى فهم فلم تزل فيهم حتى كبر الشنفرى فجعلت تبدو منه عرامة وجعل يكره جانبه ، فوقع فى نفس تأبط شرا فكان يكرمه ويدنيه وكان يغير مع تأبط شرا حتى صار لا يقام لسبيه . . (١) ورأى الشنفرى أن فرصـــة الانتقام من قبيلته الأزد قد سنحت له فصب عليها كل غزواته وقد وهب الشنفرى حياته للانتقام و بلغت الرغبة فى الانتقام حدا جعله يحرص على التفنن فيـه فكان يصنع النبال ويجعل أفوقهـا من القرون والعظام فاذا غزاهم عرفوا نبله بأفواقها فى قتلاهم وكان إذا رمى رجلا منهم قال له تحديا أأطرفك ؟؟ ثم يرمى عينه . . . (١)

شخصية الشنفرى :

للشنفرى شخصيـة متميزة بملامحهـا البدوية وطباعهـا الصحراوية وغلظتها وخشونتها .

---

١) الأغانى ج ٢١ ص ١٣٦ . وشـرح المفضليات لابن الأنبارى ١٩٦ - ١٩٨ .

والقفر والنفس البدوية الغريزة هما مصدر الأبيات التي يقول فيها :

لا تقبروني إن قبري محـرم عليكم ولكن أبشري أم عامر
إذا احتملوا رأسي وفي الرأس أكثري وغودر عنـد الملتقى ثم سائري
هناك لا أرجو حياة تسر في سجيس الليالي مبسلا بالجرائر

فجفاف الصحراء ، ومداردة الشدائد كرا وفرا والتنكر للمذلة ، وإيثار الوحوش على الأهل لانها أحفظ للسر ،او أحرص على الجار ، والاكتفاء بالقليل مادة وسكنا ، والصبر على الجـوع ، وإيثار التراب على طعام المتفضلين ، ومجاراة الايام والقبول بالفقر والغنى والارتياح إلى القوس وأخيرا الاستسلام إلى الضيم طعاما وغذاء وتفضيل ذلك على القبر الضيق هذا هو ابن الصحراء وابن الطبيعة العربية الأصيلة هذا هو الشنفرى الذى يصور لنا معنى الشجاعة والسلب والنهب في حركة الصعاليك .

شعره وخصائصه :

للشنفرى شعر في الفخر والحماسة كان أنفاسا ساحرة مرسلة على الطبيعة والسجية الفطرية ، ولقد أبدع فيه كل الإبداع فتجلى فيه الصدق والاصالة والفخامة والجزالة وبراعة التصوير الفنى وانطلاقة الروح البدوى ، ولئن كان الزمن قد جنى على آثاره الادبية كما هو الشأن فى الادب الجاهلى عموما ، إلا ان بعض أشعاره الجيدة قد أفلتته عوادى الزمن ومن أشهره « لامية العرب » وهى قصيدة من ثمانية وستين بيتا تنطق بلسان البادية الأولى وحياة التشرد والعنفوان ، ولو لا ان هذه اللامية قد غزت القلوب بما

تضمنت من أخلاق العرب وصفاتها وتصوير الروح العالية فى أبطالها لعفى عليها الزمن ولطوتها الاعاصر تحت رمال الوهاد .

ويمتاز شعر الشنفرى بالحيوية والقوة والتدفق كما أنه يصدر عن طبيعة فطرية مواتية ويتسم بخشونة في المعانى والمبانى تتصاعد من خلالها أنغام الصحراء بما فيها من وهاد ونجاد وصخور ورمال وقروقيظ وحيوان ونبات وأعشاب وبرق ورعد وسيول وشراسة وصراع ، وإنه لمن الغريب أن يصل الشنفرى الصعلوك إلى مثل ذلك الانطلاق النفسانى وتلك الحكمة الطبيعية المواتية وذلك الترف فى الاعتزاز والشرف والكرم وعلو النفس وتلك الومضات المشرقة التي تشع من نفسه وروحه خلال ليالى التشرد والضياع لكنها النفس العربية البدوية فى تعبيرها وانفعالها القوى اللماح ، وفي نبضها واختلاجها الآسر الأخاذ .

وشعر الشنفرى يدور حول الصراع بينه وبين بنى سلامان ، وحول أحاديث تصعلكه وفقره وتشرده وغاراته ومغامراته واحاديث اعتزازه وإبائه وترفعه وفخره وحماسه وانطلاقة نفسه مما يعد سجلا امينا لحياة حافلة بالالوان والاضواء والظلال ، حافلة بأحداث الفتك والنهب والسلب والتشرد والضياع ، حافلة بالشجاعة والبطولة والترفع والكبرياء ، حياة عجيبة كل العجب ، غريبة كل الغرابة لكنها رائعة كل الروعة مثيرة كل الإثارة .

ويمتاز شعر الشنفرى بالاصاله والقوة والجزاله والفخامة ومتانة الاسلوب وإحكام النسج مع براعة وخفة وسرعة إنتقال من فكرة إلى فكرة ومن صورة إلى أخرى ويالها من أفكار وصور تتراءى في ثياب بدوية

صحراوية صعلوكية النسج والبناء كما يمتاز بالدقة وإحكام الصياغة وجودة الاختيار والتدفق الفطرى البعيد عن التكلف والتصنع والافتعال المنبثق من نفس خصبة تزدهر بالحيوية وتموج بالانفعال لنستمع إليه فى تائيته المفضلية يصور واحدة فى مغامراته العديدة مفتخرا ببطولته معتدا بقدرته وشجاعته :

وباضعة حمر القسى بعثتها ... ومن يغز يغنم مرة ويشمت
خرجنا فى الوادى الذى بين مشعل ... وبين الجباهيات أنشأت سربتي
أمشى على الأرض التى لن تضرنى ... لانكى قوما أو ألاقى حمتي
أمشى على أين الغزاة وبعدها ... يقربنى منها رواحى وغدوتى
قتلنا قتيلا لامهديا بملبذ ... جار منى وسط الحجيج المصوت
جزينا سلامان بن مفرج قرضها ... بما قدمت أيديهم وأزلت
وهنىء بى قوم وما إن هنا تهم ... وأصبحت فى قوم وليسوا بمنبتي
شفينا بعيد الله بعض غليلنا ... وعوف لدى المعدى أو ان استهلت
إذا ما أتتنى ميتتى لم أبالها ... ولم تذر خالاتى الدموع وعمتى
وإنى لحلو إن أريدت حلاوتى ... ومر إذا نفس العزوف استمرت
أبى لى آبى سريع مباءتى ... إلى كل نفس تنتحى فى مسرتى (١)

* * * *

«١» المفضليات : ص ٢٠٢ وما بعدها والأغانى حـ ٢١ ص ١٣٩ .
ص ١٤٠ الباضعة : القاطعة ، يعنى قوما غزو امرة بعد مرة فاخمرت قسيهم للشمس والمطر يعثتها : بعثت هؤلاء وغزوت بهم يشمت من قولهم «شمته الله» =

وفى مقطوعة أخرى نراه يصف نفسه وصفا واقعيا دقيقا :

قليـل غرار النوم أكبر همه دم الثار أو يلقى كميا مسفعا
قليـل ادخار الزاد إلا تعلة فقد نشز الشرسوف والتصق المعا
ومن يغر بالأعداء لا بد أنه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا
وإنى وإن عمرت أعلم أننى سألقى سنان الموت يبرق أصلعا

* * *

= أى خيبه والشمات بكسر الشين وتخفيف الميم الخيبة ـ مشعل والجبا : موضعان السرية : الجماعة وأنشأت سربتي أى أظهر تهم من مكان بعيد يصف بعد مذهبه فى الأرض طلبا للغنيمة لن تضرنى : لا أخاف بها أحدا ـ لأنكي يقال نكى العدو ينكيه نكاية أى أصاب منه ـ حتي : الحمة المنية ـ أمشى إشارة إلى غزوه على رجليه وأنه لا يركب ، وأين الغزاة ما يصيبه من تعب الغزوة ـ مهديا : محرما ساق الهدى ، بملبد بمحرم لبد رأسه وجمار منى أى عند الجمار والمصوت الملبى يريد قتلنا رجلا محرما برجل محرم ـ سلامان بن مفرج هم الذين أسروه فداء ومنهم حرام بن جابر قاتل أبيه وأزلت : قدمت وليسوا بمنيتي أى بأصلى وعشيرتى يريد هنيء بى بنوسلامان حين أخذونى فى القدية وما انتفعوا بى ـ وعبدالله وعوف من بنى سلامان بن مفرج والمفدى موضع العدو والمراد ساحة القتال ، أو أن استهلت : فى الوقت الذى ارتفعت فيه الأصوات للحرب ـ العزوف المنصرف عن الشيء اسمرت : استفعلت من المرارة يقول : أنا سهل لمن ساهلنى ، مر على من عادانى ـ المباءة الرجوع ، تنتحى فى مسرتى : تقصد إلى ما يسرنى .

ومن مقطوعة له يصف فيها الطهام التى أعدها لأعدائه اخترت هـذه الأبيات :

وردت بمأثور يمان تخترتها وضالة تخيرتها ممـا أريش وأرصف
أركبها فى كل أحمر غائر وأنسج للولدان ما هو مقرف
وتابعت فيه البرى حتى تركته يرن إذا أنزفتـــه ويزفزف
يكفى منها للبغيض عراضة إذا بعت خلا ما له متعرف (١)

* * *

ومن تانيته المفضليه اخترت هذه الأبيات التي يتحدث فيها تأبط شرا رفيقه فى المغامرة ويطلق عليه « أم العيال » لما يقوم به من عناية وحفاظ على رفاقه :

وأم عيال قد شهدت تقوتهم إذا أطعمتهم أو تحت وأقلت
تخاف علينا العيل إن هى أكثرت ونحن جياع ، أى آل تألت
مصعلكة لا يقصر الستر دونها ولا ترتجى للبيت إن لم تبيت
لها وفضة فيها ثلاثون سيحفا إذا آنست أولى العدى أقشعرت
وتأتى العدى بارزا نصف ساقها تجـــول كعير العانة المتلفت
إذا فزعوا طارت بأبيض صارم ورامت بما فى جفرها ثم سلت
حسام كلون الملح صاف حديده جراز كأقطاع الغدير المنعت

---

١ » الأغانى : جـ ٢١ . ص ١٤١ .

تراها كأذناب الحسيل صوادرا وقد نهلت من الدماء وعلت (١)

* * *

---

(١) المفضليات : المفضلية «٢٠» ط دار المعارف ديوان العرب «١»

أراد بام عيال تأبط شرا لأنهم حين غزوا جعلوا زادهم إليه وكان يقتر عليهم أن تطول الغزاة بهم فيموتوا جوعا والأزد تسمى رأس القوم وولى أمرهم « أما » وفى اللسان عن الشافعى « قال : العرب تقول للرجل يلى طعام القوم وخدمتهم هو أمهم » أو تحت : أعطت قليلا ـ العيل والعيلة : الفقر — أى آل تآلت : أى سياسة ساست ؟ يقال ألته أؤوله أولا إذ اسسته وبابه قال والآل هو الأول قلبت واوه ألفا — مصعلكة : صاحبة صعاليك وهم الفقراء — لا يقصر الستر دونها : لا تغطى أمرها يقول هى مكشوفة الامر ، لاترتجى أن تكون مقيمة إلا أن تريد هى ذلك فتجىء الوفضة : جعبة السهام والسيحف : السهم العريض النصل ، آنست : أحسست العدى : جماعة القوم يعدون راجلين للقتال ونحوه لا واحد له من لفظة ، اقشعرت : تهيأت للقتال — بارزا نصف ساقها : يريد أنه مشمر جاد، العير : حمار الوحش والعانة القطيع من حمر الوحش وإنما شبهه بعير العانة لأن الحمار أغير ما يكون على أتنه ، الجفر : كنانة السهام والمراد أنه يرمى بما فى كنانته من سهام ثم يحارب بسيفه — الجراز : السيف القاطع أقطاع الغدير : أجزاء ماء الغدير يضربها الهواء فتتقطع ويبدو بريقها والمنعت مبالغة من النعت وهو الوصف بالحسن — الحسيل جمع حسيلة وهى أولا البقر شبه السوف بأذناب الحسيل إذا رأت أمهاتها فجعلت تحرك أذنابها والنهل والعلل للسيوف .

لامية العرب :

نعم لامية العرب أو قصيدة الصحراء : صورة البادية الناطقة ، ولوحتها الخالدة تعرض لنا قحلها وجفافها قسوتها وأهوالها ، حمارة صيفها ، وزمهرير شتائها ، وأنواع حيوانها وألوان الصراع فيها ، والطابع الذى تطبع به أهلها والمقيمين فيها والمتنقلين فى أنحائها .

وهى من إنشاء شاعر عاش فى البادية وخبرها بعد أن عاف الحضر وشد عنه الرحال ، إذ أنه :

طريد جنايات تياسرن لحمه عقـــيرته لأيهـا حم أول
تنام إذا ما نام يقظى عيونها حثاثا إلى مستكره تتغلغـل

والشنفرى طريد أوضاع ظالمة ، وشريد تفاوت طبقى مرير استبد به الضيق وأمضته الهموم فرفع راية التحدى وشرع سيف الانتقام وأشعل نار الغضب فالتهبت وزمجرت . والتهمت وما هدأت ولا خبت .

لقد غادر الشنفرى الأهل والأصحاب وراح يضرب فى الفيافى والقفار ولا أنيس له سوى السهام ووحوش الصحراء تتناوبه شتى المشاعر ومختلف الأحاسيس .

ومن وحى الانفعال العميق نظم قصيدته التى كانت حكاية لحاله فى عزة نفسه وسخطها ، فى ثورتها ووحشتها فى نبضاتها وخلجاتها فى قمة مشاعرها وأوج انفعالها .

وقد اشتهرت هذه القصيدة باسم « لامية العرب » منذ القدم . وهذه

التسمية معترف بها فى التاريخ الأدبى وسجلها كثير من الأدباء والنقاد فى كتاباتهم عنها أو شروحهم لها .

ولعل منشأ تلك التسمية أن هذه القصيدة كما قلت قد اشتملت على الخلائق العربية وتحدثت حديث الفطرة والطبيعة المواتية عن النفس العربية والبطولة العربية ومعانى العزة والنخوة والإباء كما سجلت ألوان الحياة فى صحراء العرب وأوضحت مدى علاقاتها بالعادات والأخلاق والتقاليد التى كانت سائدة .

وهى فى العرف الأدبى تقابل لامية العجم التى أنشأها الطغرائى المتوفى سنة ٥١٥ هـ ومطلعها :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

ولقد جادت عبقرية الشنفرى الأزدى بهذه القصيدة اللامية الخالدة التى نستروح من خلال أبياتها نسائم الحرية والانطلاقة النفسية . . .

ونصغى لأنغامها فتأسرنا موسيقى الصحراء وحداء البوادى وحقيقة فان الشنفرى قد برع وأجاد فى تصوير حياة الصعاليك العرب فى هـذه اللامية تصويرا رائعا كل الروعة صادقا كل الصدق دقيقا كل الدقة . .

والشنفرى لا يستهل قصيدته بالنسيب وبكاء الأطلال والوقوف على الديار ومساءلة الدمن كذلك لا يستهلها بمدح قبيلته والتغنى بمحامدها ومكارمها وأمجادها . . . إنما يستهلها بسهام ثورة وغضب وتبرم ويوجهها إلى صدور قومه لأنهم لم يكونوا فى نظره منصفين عادلين .

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فانى إلى قوم سواكم لأميـــل
ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم ولا الجانى بما جر يخذل

وقد لبس رداء الحكمة فى الأبيات الثلاثه التالية لافتتاح القصيدة وطالب كل حر بالارتحال عن مواطن الذل فأرض الله واسعة :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل
لعمرك مافى الأرض ضيق على امرىء سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل

ويتغنى الشنفرى بالبطولة والتفرد والاستغناء عن روابط الأقوام ووشائج الأهلين مكتفيا بثلاثة فؤاده الصخرى ، وسيفه المسلط ، وقوسه النبعية والشاعر ينفى عن نفسه التكاسل والتقاعس وإساءة التصرف ، ويثبت لها المقدرة والبراعة والمروءة والشهامة ويتغنى بعفته وشرف نفسه وصبره على الشدائد وملاقاة الأهوال . . وهو من خلال ذلك يتحدث عن الجوع والعطش فى أبيات تقرب من الثلاثين .

والشنفرى فى تصويره للجوع والعطش يرسم لنا لوحة قلما نجدها عند غيره من كبار الفنانين :

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل
وأطوى على الخمص الحوايا كما انطوت خيوطه مارى تغار وتفتـــل
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أزل تهاداه التنائف أطحـل
غدا طاويا يعارض الريح هافيا يخوت بأذناب الشعاب ويعسل

* * *

ويعيا عن الحصول على القوت الطيب فيأكل ما تعافه الحيوانات إذا وجده بعد أن يصاب بالدوار من الجوع فيخطف ويختلس . وقد تضيق الصحراء أمامه ولا يجد من القوت شيئا فيأخذ فى الصراخ والعويل شاكيا إلى نظائره من الذئاب التي تفوقه هزالا وكلالا ، وقد عرض صورة فنية رائعة للجوع فى شبح ذئب وصفه الشاعر بأبيات تعد من خير تراثنا فى الأدب الجاهلى :

فلما لواه القوت من حيث أمه دعا فأجابته نظائر نحـــل
مهلهلة شيب الوجوه كأنها قدح بكفى باسر تتقلقل
أو الخشرم المبعوث حثحث دبره محابيص رداهن سام معسل
مهرته فـــوه كأن شدوقها شقوق العصى كالحات وبسل

* * *

وكما اختار الشنفرى الذئب للتعبير عن الجوع فكان موفقا في اختياره عرض القطا لتصوير العطش فكان أبلغ وأدق وهو من خلال ذلك يتطرق خفة إلى صفة من الصفات التي يفاخر بها وأعنى صفة السرعة في العدو وسبقه أسرع الحيوانات والطيور .

وتشرب أسآرى القطا الكدر بعدما سرت قرباً أحشاؤها تتصلصل
همت وهمت وابتدرنا وأسدلت وشمر منى فارط متمهـــل

« ١» أعجب العجب فى شرح لامية العرب : الزمخشرى .

قوليت عنها وهى تكبو لعقره يباشره منها ذقون وحوصل

* * *

ويتحدث الشنفرى عن خشونة العيش وقسوة الحياة وحالة الضعف التي منى بها فقعدت به عن الحروب والمغامرات كما يتحدث عن همومه وآلامه ومتاعبه التي تحيط به من كل جانب فيحاول بدوره التسلل منها فيبدو كالحية أو كالنعامة فوق الرمال يسير حافيا كي لا يحس به أحد .

وإلف همـوم ما تزال تعوده عياد اكحمى الربع أو هى أثقل
إذا وردت أصدرتها ثم إنها تتوب فتأتى من تحيت ومن عل
فأما ترينى كابنة الرمل ضاحيا على رقبة أحفى ولا أتنعل

* * *

ويعرض الشاعر صورة من أخلاقه وأخص ما توصف به الشجاعه والقناعة والصبر وعزة النفس والترفع عن الدنايا :

فانى لمولى الصبر أجتاب بزه على مثل قلب السمع والحزم أفعل
وأعدم أحيانا وأغنى وإنما ينال الغنى ذو البعدة المتبذل
فلا جزع من خلة متكشف ولا مرح تحت الغنى أتخيـــل
ولا تزدهى الأجهال حلمى ولا أرى سؤولا بأعقاب الأقاويل أنمل

* * *

ويمضى الشنفرى فى أدب اعترافى قصصى يحدثنا عن مغامرة من مغامراته

فى ليلة باردة زمهر برية أتى فيها بالعجائب وركب الأهوال ، وقصده من قصته تصوير بطولته وجرأته وإقدامه وشجاعته والاستخفاف بمجابهة الأحداث مهما كانت قاسية :

وليلة نحس يصطلى القوس ربها ... وأقطعة اللاتى بها بتنيـــل
دعت علي غطش وبغش وصحبتى ... سعار وأرزيز ووجر وأفكل
فأيمت نسوانا وأيتمت إلدة ... وعدت كما أبدأت والليل أليل
وأصبح عنى بالغميصاء جالسا ... فريقان مسئول وآخر يسأل
فقالوا لقد هرت بليل كلابنا ... فقلنا أذئب عس أم عس فرعل
فلم تـك إلا نبأة ثم هـومت ... فقلنا قطاة ريع أم ريع أجدل
فإن يك من جن لأبرح طارقا ... وإن يك إنسا ماكها الإنس تفعل

* * *

ويستطرد فى حكاية قصة أخرى فى قصص مغامراته يعرض فيها صورة أخرى للغامر الشرس القبيح ذى الملامح الشوهاء المزدراة :

ويوم من الشعرى يذوب لوابه ... أفاعيـه فى رمضائه تتململ
نصبت له وجهى ولا كن دونه ... ولاستر إلا الأتحمى المرعبل
وضاف إذا هبت له الريح طيرت ... لبائد عن أعطافه ما ترجـل
بعيد بمس الدهن والفلى عهـده ... له عبس عاف من الغسل محول

* * *

---

(١) أعجب العجب فى شرح لامية العرب للزمخشرى .

وفى الأبيات الأخيرة يحدثنا الشنفرى عن سرعة عدوه وتتابع قفزه ووثبه إلى قنن الجبال وأعلى النجاد وصحبته للوعول والأراوى وكأنه واحد منها تلتمس عنده الأمن فتسكن إليه وتطمئن للقرب منه :

وخرق كظهر الترس قفر قطعته ... بعاملتين ظهره ليس يعمل
وألحقت أولاه بأخراه موفيا ... على قنة أقعى مرارا وأمثل
ترود الأراوى الصحم حولى كأنها ... عذارى عليهن الملاء المذيل
ويركدن بالآصال حولى كأننى ... من العصم أدفى ينتحى الكيح أعقل

* * *

هذه هى اللامية : «لامية العرب» أغرودة البادية ، وأنشودة الصحراء ، ولحنها الخالد الذى يتردد على سمع الزمن أنغاما شجية ، تروعنا بأصالتها وصدقها وتستولى على قلوبنا ببراعتها وروعة تصويرها .

لامية العرب و نسبتها للشنفرى :

انعقد رأى أكثر العلماء والرواة على أن لامية العرب إنما هى للشنفرى الأزدى ، ما عدا صاحب تاج العروس الذى ينسبها إلى تأبط شرا [١] .

وليس هناك من النصوص ما يثبت صراحة أنها ليست للشنفرى سوى نص يرويه القالى عن ابن دريد يزعم أنها من وضع أبى محرز خلف الأحمر ابن حيان الراوية المشهور المتوفى عام ١٨٠ هـ [٢] .

وهذه الدعوى فى رأيى تحتاج إلى أدلة تساندها وتؤيدها خاصة ونحن أمام نص أدبى له خصائصه القوية وملامحه المميزة وسماته البارزة ودلالته الأصيلة على بيئته وعصره .

ومهما كانت مكانة ابن دريد ،ومهما كان إغفال صاحب الأغانى لهذه « اللامية » فى ترجمته للشنفرى ، ومهما كان إهمال صاحب لسان العرب لها وعدم إيراده أى بيت منها على سبيل الاستشهاد . . . مهما كان ذلك كله فانه لا يرجح كفة الشك فى صحة نسبتها إلى الشنفرى كما فعل بعض الباحثين المعاصرين . [٣]

والنغمة الحبيثة التي طال ترددها عن الشعر الجاهلى والطعن فيه ، ورميه بأنه موضوع منتحل هى نغمة معروفة تعرضت للطعن من صفوة

---

(١) الشعراء الصعاليك ص ١٧٧ .
(٢) الأمالى جـ ١ ص ١٥٦ .
(٣) يوسف خليف فى الشعراء الصعاليك ص ١٧٨ .

الناس وخيار الباحثين ضد الأدعياء المغالين .

وأعتقد أن الباحث الواعى ينبغى أن يكون دائما على حذر ودراية وتبصر حتى يكون على مستوى البحث العلمي فلا تغره أسماء ولا تلعب بعقله عبارة ، ولا تحيد به رواية ، ولا يصرفه عن الحق هوى .

وللحقيقة كلمة أقولها . . . وهى أننا أمام قصيدة عبقرية بدوية جاهلية صحراوية ليست مصنوعة ولا منحولة وليست أموية ولا عباسية .

والقصيدة فى معناها ومبناها وملامحها وسماتها وزواياها الفنية المتعددة ، ونهجها وطرائقها إنما هى بدوية صحراوية صعلوكية لحما ودما ، لا تصدر إلا عن شعور قوى جارف ونبع طبيعى فياض ، وروح مشرق لماح ، ونفس قد تسربلت الأشواك والتحفت بالرمال والنبال . . .

فمطلعها إنما هو من وحى مشاعر الشنفرى وضيقه وحنقه وحدته وثورته على قبيلته وأهله وعشيرته وأحاديثه عن رفاقه وتصويره لهم وإلماحه إلى خلائقهم ، وعرضه لبطولاتهم إنما هو بفعل مخالطة ومشاركة واندماج وامتزاج وصحبة طويلة وليست بفعل البراعة فى التزييف والنصب والاحتيال وحديثه عن ترفعه وإبائه وعزة نفسه وبعده عن سمات النقص وتعففه وحزمه والتشديد على نفسه بقبضة حديدية قوامها صلابة وثيقة وعزيمة أكيدة ترفعا وإباء ولو اضطر مع ذلك إلى أن يستف التراب مما يؤكد خلقا عربيا بدويا جاهليا وعزا لا يقدر عليه ولا على تصويره إلا بدوى صحراوى أصيل .

وما تعبيره عن جوعه وبؤسه وافتراشه الأرض والتحافه السماء وصحبته

للحيوانات ووصفه للذئاب الجائعة واعتماده على القوس فى هجماته لدى زمهرير البرد وقيظ الحر وخبرته بالمسالك والدروب والشعوب . . . ما ذلك كله إلا خير دليل وأعظم برهان على السجية الفطرية والطبيعة البدوية الجاهلية ، والنفسية المميزة لأشراف الصعاليك فى العصر الجاهلى . . أضف إلى ذلك ألفاظ القصيدة وجزالتها وفخامتها وغرابتها وروحها الجاهلى وأساليبها المتينة ونسجها القوى ، ومعانيها الواضحة القريبة وخيالها النابع من حياة الصعلكة والتصعلك التي عاشها الشنفرى فى ربوع الصحراء . . .

والروح القصصى الحكائى البادى فيها والذى يشبه حكايا امرىء القيس وقصص مغامراته فى معلقته مما يدل على على عصر واحد وبيئة واحدة حقيقة وصطقا لا وضعا وانتحالا . . . هذه كلها أضواء باهرة على طريق التشكك كفيلة بأن تزيل ظلماته ، وتقضى على آفاته ، وتعيد الحق إلى نصابه ، وترد سيف الباطل إلى جرابه . . .

وإذا كانت هذه القصيدة كما يدعى البعض غير حقيقية ودخيلة على الشنفرى فان الشاعر الذى قالها يجب أن يكون ملماً بالحياة للعربية الجاهلية إلماما تاما كما أن خياله لابد أن يكون غزيراً جداً حتى أنه ليستحق أن يتبوأ أسمى مكانة بين الشعراء الجاهلين . . .

وإذا لم تكن هذه القصيدة لبطل الصحراء فانها صنعت لتنسب لمثله ، وما كان فى استطاعة شاعر إسلامى متأخر الخروج من بيئته والتحدث عن كيان نفسه وذات روحه بمثل قول الشنفرى :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فانى إلى قوم سواكم لأميل
ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

أو بمثل قوله :

وفى الأرض منأى للكريم عن الاذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

وقوله :

وأطوى على الخمص الحوايا كما انطوت خيوطة مارى تغار وتفتل (١)

وقوله :

فان تبتئس بالشنفرى أم قسطل لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطول

وقد يكون من العجيب أن يتقمص راوية مثل (أم قسطل : الحرب) شخصية الشنفرى ويقول الشعر باسمه ثم يكون على هذا النمط المنطبع مع الحياة وسايرللفطرة والروح البدوية الجاهلية الاصيلة . . .

وإذا كان خلف قد وصل إلى هذه المنزلة من البراعة والتزييف الإتقان أما كان الاجدر به أن ينسب هذه القصيدة لنفسه وينشرها على الملا باسمه فينال بذلك مجدا وشهرة وخلوداً بدلا من أن ينتحل ويزيف ويطلق عليه الناس لقب « المزيف البارع » و «المزيف الكبير » . . . (٢) .

---

١) الخمص الجوع ـ الحوايا الامعاء جمع حوية والخيوطة كالخيوط السلوك ومارى اسم رجل وقيل اسم للقاتل وقيل أصلها مائرى من مأرت الشيء إذا أصلحته .

٢) انظر هذا اللقب فى الشعراء الصعاليك ليوسف خليف ص ١٧٣ .

ما أظن خلفا أبله إلى هذه الدرجة كما لا أظنه قد وصل إلى مثل هذه الدرجة من البراعه والفطنة والمهارة مهما قال فيه القائلون ، ومهما أفاض فى أحاديث تزييفه المحدثون (١) .

. . . .

وبالاعتبارات الفنية المحضة فان الحجج والادلة التي أعتمد عليها المتشككون إنما هى حجج واهية وأدلة ينقصها التمحيص ولا يمكن لها أن تثبت أنوار الحقيقه وتحت أضواء البحث . . .

وأرى لزاما على الآن أن أتناول بالدفع حجج هؤلاء المتشككين وأدلتهم التي اعتمدوا عليها وتمسكوا بها . . فأوردتهم موارد الريب ودفعت بهم إلى هاوية الحيرة والشك . . .

انهم يتحدثون عن الطول غير المألوف فى شعر الصعاليك وهو ما نجده بوضوح فى لامية العرب ومعنى ذلك ببساطة أن لامية العرب ليست من شعر الصعاليك . . . ! !

وأنا أقول :

ان الطول غير المألوف ليس حجة فى أن القصيدة ليست للشنفرى الشاعر الصعلوك رغم أن أكثر ما وصل الينا من شعر الصعاليك إنما هو شعر

---

١) ابن سلام والاخفش نقلا عن معجم الادباء لياقوت حـ ١ ص ٦٧ وابن قتيبة فى الشعر والشعراء ص ٤٩٧ .

مقطوعات ... وإذن فما أدرانا بما لم يصل إلينا ؟ نحن بغير شك لا ندرى شيئا عما لم يصل إلينا ... أو ليس من الجائز أن يكون هناك من القصائد المنسوبة للشعراء الصعاليك ما هو أطول من « لامية العرب » ؟ ؟

أو ليس من الجائز أن تكون هذه المقطوعات القصيرة قد جاءت مبتورة وقد انتقص منها بفعل الزمن فلم ترو كاملة ... ؟ ؟

وهنا أذكر بقول أبي عمرو بن العلاء :

« ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » (١) .

ثم ... أو لسنا نتفق على أن الشعر إنمـــا يخضع للانفعال والتجربة الشعورية والأمر فيه ليس أمر طول أو قصر يقاس فيه بالشبر أو بالباع والذراع ... ؟ ؟

ومع افتراضنا بأن الشعر الصعلوكي كله شعر مقطوعات .. فهل يلزم أن يكون هذا الحكم عاما وشاملا لا شذوذ عنه ، ولا خروج عليه ؟ ؟

أو ليس من الجائز أن تكون هذه اللامية قد خرجت على هذه القاعدة وشذت عنها لظروف خاصة .. ؟ ؟

أو بعبارة أخرى نقول :

أو ليس من الجائز أن تكون الشنفرى قد نظمها في حال آمنة مطمئنة

---

١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٠ والمزهر للسيوطي حـ ٢ ص ٩٤.

مستقرة ، فلم ينقطع بها نفسه ،ولم تقف به مشاعره . ولم تخذله شاعريته فأتى بها ثمانية وستين بيتا . . ؟ ؟

وأقول على الفور إننا لو سلمنا بأن هذه اللامية من صنع خلف الأحمر سار فيها على طريق الاحتذاء والتقليد للشعراء الصعاليك بكل براعة ودقة أفما كان الأجدر به ـ مراعاة للدقة وتخفيفا من العناء ـ أن يراعي مسألة الطول كي يصدق فى ادعائه ولا ينكشف تزييفه . . ؟ ؟ ترى أين كانت براعته ومقدرته آنذاك ؟ ؟ هل خفى عليه الأمر ؟ أم ترى أنه لم يعط لمسألة الطول أهمية لأنها لم تثبت عنده ؟ ؟ ؟ إن كان الأمر الثانى فقد انهدم الدليل من أساسه . . . . وكفى الله الباحثين شر الصراع وإن كان الأمر الأول فقد سقطت براعة خلف ، وسقطت مقدرته . . فـــلا براعة ولا مقدرة ولا تزييف . .

ومع ذلك كله فاننى أقرر أنه مع طول اللامية فانها تعبر عن انفعالات شتى ومشاعر متباينة وموضوعات متعددة حتى لكأنها مقطوعات متعددة فى قصيدة واحدة وإطارفنى بارع ولوحة جمالية رائعة متناسقة الالوان والاضواء والظلال . .

ويقول المتشككون : إن لاميه العرب يقل فيها بشكل بين ملحوظ الاضطراب فى رواية ألفاظها وفى ترتيب أبياتها وهذا غير معهود فى شعر الصعاليك بوجه خاص مما يرجح ـ من جهة نظرهم ـ أنها ـ دخيلة منتحلة وليست من شعر الصعاليك .

وأرى أن مسألة قلة الاضطراب في رواية الالفاظ وفى ترتيب الابيات

لا يصح أن تنهض دليلا على الانتحال أو مبررا للتشكك : فمع اعترافنا وعلمنا أن القلة والكثرة من الامور النسبية التي لا يمكن تحديدها بسهولة ويسر فاننا نعتقد أن السبب فى ذلك يرجع إلى الاهتمام بهذه اللامية وحرص الجميع على تداولها وحفظها والاستشهاد بأبياتها مما أدى إلى شهرتها الواسعة وكثرة الشارحين لها وحرص الرواة عليها الامر الذى لم يتوفر تغيرها من شعر الصعاليك .

ومع ذلك فان « لامية العرب » كغيرها من القصائد العربية وصلتنا بالرواية فطرأ عليها التغيير والتبديل والاضطراب فى ألفاظها وترتيب أبياتها ، وهذا واضح جدا فى المخطوطات الكثيرة التي وصلتنا : فمخطوطة باريس تخالف تلك التي يملكها « بترمان » أو الفاتيكان أو « جوتا » أو « شبرنجر » . .

ففى مخطوطة « بترمان » نجد البيت السادس والثلاثين يرد بعد التاسع والثلاثين ، وفى مخطوطة الفاتيكان يرد البيت السادس والثلاثون بعد الثامن والثلاثين كما يرد البيت التاسع والثانون بعد الاربعين ، والخامس والاربعون بعد الخمسين خطأ .

وفى مخطوطة « جوتا » يرد البيت السادس والاربعون خطأ قبل الرابع والأربعين .

وفى مخطوطة « شبرنجر » سقط البيت التاسع كما يرد البيت التاسع والعشرون خطأ بعد الثلاثين وفى مخطوطة « ليدن » وردت أبيات القصيدة على الترتيب الآتى :

١ – ١٣ ، ١٩ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ – ٤٤ ، ٤٧ – ٥٢ ، ٦٤ – ٥٦ ، ٥٨ – ٦٤ ، ٦٦ – ٦٨ .

وقد سقطت الأبيات :

١٤ ، ١٦ ، ٨ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٦٥ كما تغير ترتيب البيت التاسع عشر [1] .

.. .. ..

ولعل فى هذا الاضطراب ما يرضى السادة المتشككين ويطمئنهم على أن القصيدة من شعر الصعاليك وأنها للشنفرى الشاعر الصعلوك وليست منتحلة ولا موضوعة كما ليست لخلف الأحمر . . .

ومرة أخرى أقول لهؤلاء : مهلا ياسادة مهلا . . . شيء من الحذر ، وشيء من الدقة . . . وشيء من العمق . . وشيء من التأمل قبل أن تصدروا أحكامكم وتطلقوا كلامكم .

وإن لى بعد ذلك كلمة أخيرة بشأن ما لاحظه « كرنكو » من قلة أسماء المواضع والاشخاص في « لامية العرب » : وهأنذا مرة أخرى أقول إن القلة والكثرة مسألة نسبية تخضع للظروف الداعية لإنشاء القصيدة كما تخضع لموضوعها ، والاتجاه الفنى فيها .

والشنفرى في قصيدته اللامية كان قصوراً بارعا يعرض ويحلل ويتعمق

---

١) لامية العرب – الدكتور فؤاد حسنين على ص ٦ .

المشاعر والأحاسيس ويبدى نظراته وتأملاته من خـــلال مشاهداته والمشاهدات فى البيئة البدوية الصحراوية تكاد تكون واحدة ومتشابهة حتى مع اختلاف الأماكن والبقاع ولم يكن الشنفرى « أطلس » جغرافيا يصور فى لاميته خريطة للبادية تحوى أسماء الأماكن والجهات والغلات والحيوان وأشهر النباتات والاشخاص ! ! ! لم يكن الشنفرى شيئا من ذلك كما لم يكن شيء من ذلك يهمه ويشد نظره إليه لقد كان الشنفرى شاعراً عبقرياً ملهما بارعا كل البراعة ، رائعا كل الروعة جاد بلاميته فنالت الشهرة وظفرت بالمجد وحظيت بالخلود .

وبعد فهذه هى حجج المتشككين وأدلتهم وقد تداعت أمام قوة الحقيقة ، وانكشف زيفها تحت أضواء اليقين ، وتبدد باطلها بروعة الحق المبين .

وإذا كان من السهل الميسور على المدعين أن يطلقوا الاحكام ، ويصدروا الاقوال دون مبالاة بخطورتها وما يترتب عليها فان من الصعب عليهم أن يستندوا إلى قوة دليل وعظيم برهان أو أن يثبتوا أمام أصالة بحث وعمق فكر ودقة نظر . كذلك فان من الصعب عليهم أن يحيلوا الأمر كله إلى قضية شك فى التراث ،ورفض لكل ماورد عن السلف وماجاد به الزمان من آثارهم، ذلك أمر فوق الطاقة والمقدور ، وإنه بعد ذلك لأمر مهول وخطير . . .

إنها لامية العرب ، لامية الصعاليك ، لامية الشنفرى الأزدى ، وليست لامية خلف ولا غير خلف ، إنها لامية جاهلية صعلوكية وليست أموية ولا عباسية ، والنص الأدبى بملامحه المميزة وسماته الفنية لهو خير دليل وبرهان .

لامية العرب : خصائصها الفنية وملامحها المميزة :

قصيدة الشنفرى حافلة بمواطن الجمال الأدبى والإشعاعات الخلاقة ، والصور الجذابة ، والألوان الخلابة ، والخيال الخصب ، والإلهام المبدع والإشراق الروحى المتألق .

والقصيدة تصدر عن سجية فطرية وطبيعة بدوية جاهلية ونزعة ثورية امتاز بها الصعاليك في العصر الجاهلى ، فهى تتسم بالوضوح والبساطة ، والمكاشفه والمصارحه والسهولة واليسر والبعـــد عن الغموض والتعقيد في المعانى والأساليب ، والانطلاق فى التعبير ، وسرعة التنقل بين الأفـكار والخواطر ومتابعة الأحاسيس والمشاعر وصورها مستمدة من البيئة الجاهلية نابعة من حياة الصعلكة والتصعلك التي عاشها الشنفرى فى ربوع الصحراء ، ومن وحى هذه الحياة كانت الصراحة والخشونة والدقة والواقعية التي تتجلى فى صدق النقل عن الحياة ، ومطابقة الصورة للأصل ، واستكمال جوانبها ، واستقصاء معالمها والاعتماد على التشبيه كلون قوى من الألوان البلاغية التي اعتمد عليها الشعراء الصعاليك فى صنعتهم الفنية .

ومع الألوان والأضواء والظلال تتنقل مع لوحات متكاملة من التشبيه البليغ والمجاز المشرق والاستعارة الرائعة والكناية البارعة تأتلق كلهـا فى عرض فنى ممتع بسيط فى مظهره عظيم فى تأثيره الفنى العالى وقد صيغ ذلك كله فى ألفاظ تمتاز بجزالتها وفخامتها وغرابتها وروحها الجاهلى وملامحها البدوية .

وأساليبها متينة الأداء محكمة النسج قوية البناء ، أصيلة الملامح ،

وطيدة الدعائم فى الانتماء إلى بيئتها وحوها ، وثيقة الصلة بالظروف التى صنعتها وأوحت بافشائها .. عميقة الدلالة على شخصية قائلها وجلاء نفسيته والكشف عن أسرارها وتجلية النوازع الخفية التى كانت تنتابها والروح القوى الذى كان يسيطر عليها ...

ومن خلال الابيات تروعنا ألوان بديعية فطرية مقبولة غير متكلفة ولا ممجوجة ... ألوان بديعية لألاءة من مقابلة دقيقة وجناس جميل مما يضفى على الكلام جوا من الرونق والبهاء والجلال . وبعد ... فهـــذه بعض اللمحات المضيئة والومضات البراقة التى تطالعنا بجمالها وروعتها ، وتأخذنا بسحر بيانها وبديع صياغتها ، وتبهرنا بجلال معانيها وسموغايتها ... ففى قوله « أقيموا بنى أمى صدور مطيكم » كناية دقيقة تدل على مدى الثقل الذى ينوء تحته من قومه وبنى أمه ، وفى قوله « بنى أمى » إشارة إلى عمـــق الصلة وأصالة الارتباط والإحساس بالانتماء ودواعى التعاطف والائتلاف التى استباح قومه حماها ، ومزقوا إهابها ودكوا معالمها ... وفى قوله « فانى إلى سواكم لاميل » تعبير صريح جرىء عن إعراضه عنهم وانصراف قلبه وهواه إلى قوم سواهم أصفاهم بالقدر الأوفر من الحب والود والألفة والثقة ... وفى قوله « فقد حمت الحاجات والليل مقمر » إشعار بوضوح الامر وانكشاف الغاية وتبين العلاقات ... وما أروع قوله :

لعمرك ماباالأرض ضيق على امرىء سرى راغبا أوراهبا وهو يعقل

فقد جعل العاقل اللبيب يأبى الذلى والهوان إذ أن فجاج الأرض

واسعة ورحابها فسيحة وفيها الملجأ والملاذ لأولئك السارين المرتجلين رغبة أو رهبة .

وقد أضفى الشاعر على رفقته من الفرسان الصعاليك جملة صفات فى بيت واحد تثبت لهم القوة والجرأة والمنعة واليقظة والسرعة والشراسة :

ولى دونكم أهلون سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل

والسيد هو الأسد بلغة هذيل وبلغة سواهم الذئب والعملس القوى على السير السريع ، والارقط الزهلول : النمر المخطط الجلد الأسلس الناعم والعرفاء : الضبع وجيأل : اسم معرفة لها وقد استبدل الشنفرى بقومه أهلا آخرين من الشجعان الذين يشبهون هذه الحيوانات فى قوتها ومنعتها وبأسها وشراستها وسرعتها ويقظتها ، وقد جعلهم أهله وعشيرته الحافظين اسره المتضامنين معه ، فهم بذلك رهطه وجماعته وأحبابه وخلصاؤه :

هم الرهط لا مستودع السر شائع لديهم ولا الجانى بماجر يخذل

وقد جعلهم جميعهم صورا ناطقة بالإباء والشجاعة والبطولة غير أنه احترس فجعل نفسه المقدم فيهم جميعا عند الشدائد والملمات :

وكل أبى باسل غـــير أننى إذا عرضت أولى الطرائد أبسل

وهو أعفهم نفسا ، وأحرصهم ابتعادا عن النقائص عن سعة وتفضل وإحسان وتكرم لا عن عجز أو هوان :

وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذا أجشع القوم أعجل
وما ذاك إلا بسطة عن تفضـل عليهم وكان الأفضل المتفضل

وقد بلغ الشاعر قمة شماء من قمم البلاغة والبيان حين عبر عن اكتفائه بأصحاب ثلاثة رأى فيهم غناء عن الأهل والأعوان وفقد الابطال الكماة ، وأصحابه الثلاثة : فؤاد قوى ثابت ، وسيف بتار مصلت ، وقوس متينة من نبعة صنعت ، وعما يقويها قد غنيت :

وإنى كفانى فقد من ليس جازيا بحسنى ولا فى قربه متعلـــل
ثلاثـة أصحاب : فؤاد مشيع وأبيض إصليت ، وصفراء عيطل

وقد أجاد الشاعر وأبدع فى وصف القوس وإبرازها فى صورة دفعت المبرد إلى أن يقرر أنه لم يسبق بهذا الوصف فهى هتوف مصوتة ناعمة ملساء خالية من العقد والخشونة وهى مرصعة بالجواهر مزدانة بالحلى إذا زل السهم عنها صوتت صوتا يشبه حنين النائة الملتاعة على صغيرها أو أنات المرزأة الثكلى المنكوبة فى وحيدها إذ تعول بصوت مرتفع سرعان ما يضعف ويتلاشى جهدا وإعياء :

هتوف من الملس الحسان يزينها رصائع قد نيطت عليها ومحمـل
إذا زل عنها السهم حنت كأنها مرزأة ثكلى ترن وتعـــول

ولقد برع الشاعر فى استخدام الاساليب المثيرة المؤثرة ، والتعبير التصويرى اللماح ، والإيحاءات القوية ، والتشبيهات البليغة ، والاستعارات الاخاذة ، والمجازات البديعة ومن ذلك قوله ينفى عن نفسه الغفلة وسوء التصرف والحين وفساد الخلق والليونة وفتور الهمة وسقوط المروءة بملازمة مجالس النساء والاشتغال بالكحل والطيب :

ولست بمهياف يعشى سوامه مجدعـة سقبانها وهى بهـــل

ولا جبأ أكهى مرب بعرسه يطالعها فى شأنه كيف يفعل
ولا خالف دارية متغـــزل يروح ويغدو داهنا يتكحل (١)

ويصف نفسه برباطة الجأش وقوة العزيمة وشدة الصبر وتحمل المكروه فى سبيل العزة والكرامة والترفع والإباء فيقول :

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل
وأستف ترب الأرض كيلا يرى له علي من الطول امرؤ متطول

تأمل قوله « أديم مطال الجوع حتى أميته » وما فيه من الاستعارة الرائعة التي تصور مغالبته للجوع وما طلته له فى إلحاحه ولحاجة حتى يقضى عليه

( ) المهياف : قليل الخبرة الذى يبعد بابله طلبا للمرعى فيعطشها ـ يعشى سوامه : يعود بابله فى العشى متأخر ابعد إبعاده بها ـ مجدعة سقبانها : المجدعة سيئة الغذاء والسقبان جمع سقب كفلس ولد الناقة ـ البهل : الباهلة الناقة المخلاة ـ الجبأ : الجبان

الأكهى : السيء الخلق ـ مرب بعرسه : مقيم ريبب روجته يخضع لرأيها ومشورتها

الخرق : الدهش المتحير جبنا وخوفا ـ الهيق : الظليم (ذكر النعام) وهو نفور مروع مذعور

المكاء : طائر يتصعهد ويتسفل فى طيران ينفى عن فؤاده الإضطراب والخنق ذعرا

خالف : متخلف عن الخير والنفع ـ دارية : مقيم بداره لا يبرحها ـ متغزل : مشغول بالنساء .

تماما وينساه . وقوله « وأستف ترب الأرض » وما فيه من كناية قوية معبرة عن تعففه وإبائه وعزة نفسه إذ يلجأ إلى استفاف التراب ولا يمد يدا لأحد فيأسره بمعروف . إنها عبارات تسيل رقة وعذوبة وتفيض بلاغة وسحرا وتألق عزة وكبرياء ..

وقل ما شئت عن سحر الكلام وبراعة التصوير وروعة التمثيل والتشبيه وجودة السبك وحسن الرصف وإبداع الصياغة وهو يمثل حاله بحال الذئب الأزل الجائع تتقاذفه الصحراء طلبا للقوت بلا جدوى فأخذ يصرخ عاويا حتي واتته نظائره من الذئاب التى كان ينشد لديها القوت فاذا بها هزيلة كليلة لا قوت عندها مترنحة مضطربة اضطراب القداح فى يد الياسر ، واسعة الأشداق ، مفتحة الأفواه كأنهـا شقوق عصى مهيأة للالتهام وأخذت جماعتها تضج وتعوى كنائحات ثكالى قد استبدبهن الجزع البالغ والحزن المروع ثم أخذت تهدأ وتستكين وتعدل عن العواء وتستسلم للقضاء إذ أدركت أن الصبر على اللأواء أولى بها وأجمل من الشكوى والعواء ... إنها لوحة فنية بارعة بجوانبها الحركية واللونية والصوتية وبعناصرها الإبداعية المثيرة وبوحدتها الانسجامية المبهرة يقول الشاعر :

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا ... أذل تهاداه التنائف أطحـــل
غدا طاويا يعارض الريح هافيا ... يخوت بأذناب الشعاب ويعسل
فلما لواه القوت من حيث أمه ... دعا فأجابتـه نظائر نحـــل
مهلهلة شيب الوجـــوه كأنها ... قـــداح بكفى ياسر تتقلقل
مهرته فوه كأن شدوقها ... شقوق العصى كالحات وبسل

وضج وضجت بالبراح كأنها وإياه نوح فوق عليـاء ثكل
وأغضى وأغضت وأتسى وأتست به أرامل عزاها وعزته أرمل
شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت وللصبر إن لم يفع الشكو أجمل(١)

وقل مثل ذلك فى حديثه عن القطار وسبقه لها فى الوصول إلى الماء فيشرب هو ما يشاء وتبقى أسآره لتشرب منها جماعات القطا بقدر ما بقى لها من الماء بعد عجزها عن سبقه إليه وشدة ما اعتراها من إعياء حين أدركت الماء وتواردت إليه محدثة جلبة وضوضاء كتلك التى تصدر عن الجماعات المنضم بعضها إلى بعض من سفلى القبائل النازلة :

همت وهممت وابتدرنا وأسدلت وثمر منى فارط متمهل
فوليت عنها وهى تكبو لعقره يباشره منها ذقون وحوصل

---

(١) الأزل : الذئب الأرسح قليل لحم الوركين ـ التنائف : جمع تنوفة وهى المفازة والصحراء ـ الأطحل ما كان لونه كلون الطحال بين الغبرة والبياض طاويا : جائعا ـ هافيا : سريع العدو أو هو كما قال المبرد الذى يذهب يمينا وشمالا من شدة الجوع ـ لواه القوت من حيث أمه : عز عليه القوت فى الأماكن التى قصدها وطلبه فيها ـ نظائر نحل : أشباهه ومثاله من الذئاب المهازيل مهلهلة : دقيقة الجسم رقيقة اللحم ـ القداح : مفردها قدح وهو السهم قبل أن يراش ويركب عليه نصله والياسر : الضارب بالقداح فى القمار وتقلقل أى تتحرك وتضطرب ـ مهرتة : واسعة الأشداق ـ فوه : جمع أفوه وفوهاء : مفتوحة الفم جوعا والشدوق جمع شدق وهو جانب الفم والكالحات جمع كالحة والكلوح تكشر فى عبوس والبسل : كريهة الوجوه وذلك يكون فى الحرب ـ البراح : الأرض الواسعة لاماء فيها =

كأن وغاها حجرتيه وحوله أضاميم من سفلى القبائل نزل (١)

ويبدع الشاعر فى تصوير إلفه للصحراء وافتراشه الأرض ونومه على الحصا وتوسده ذراعه النحيلة وفراره من العيون التى تترصد له والجنايات التى تطارده وتمثيلها بأنهاذات عيون تستحث إلى مكروهه وتسعى إلى تدميره، وهو ملازم للهموم ثقال لا تكاد تنفك عنه إلا ريثما تعود إليه كحمى الربع لا تزال . تعاود المبتلى بها حتى ترحل عنه أو تقضى عليها ولعل هذه الهموم أثقل منها واشد وطأة فهو فى صراع دائم معها إذا غلب على بعضها او تناساه هبت عليه عواصفها من كل أتجاه :

وآلف وجه الأرض عند افتراشها بأهدأ تنبيه سناسن قحل
واعدل منحوضا كأن فصوصه كعاب دحاها لاعب فهى مثل
طريد جنايات تياسرن لحمه عقيرته لأيهم اول
تبيت إذا ما نام يقظى عيونها حثاثا إلى مكروهه تتغلغل

= ولا شجر ـ نوح : جمع نوحاء أى نساء نوائح والعلياء المكان المرتفع ـ الأرامل جمع أرمل وأرملة بمعنى المحتاج والمسكين وائتسى وائتست به أى اقتدى بها واقتدت به وارعوى : كف عن الشكوى وعدل عن الضجيج .

(١) شمر : نشط ، منى : تجريد ، فارط : متقدم وجمعه فراط ـ تكبو : تتساقط من الضعف ـ العقر : مقام الساقى من الحوض يتساقط فيه الماء من آخذه ـ الوغى : الصوت ـ حجرتيه : جانبيه أضاميم . جمع إضامة وهم القوم ينضم بعضهم إلى بعض وسفلى القبائل المتأخرين منهم .

إلف همـــــوم ما تزال تعوده عيادا كحمى الربع أو هى أثقل
إذا وردت أصدرتها ثم إنها تثوب فتأتى من تحيت ومن عل (١)

تأمل هذه الاستعارات الجميلة ، والكنايات الدقيقة ، والتشبيهات البليغة والمجازات البديعة الرائقة « آلف وجه الأرض » « طريد جنايات تياسرن لحمه » « يقظى عيونها حثاثا إلى مكروهة ، تتغلغل » « وإلف هموم » « ما تزال تعوده عيـادا » « كحمى الربـع » (إذا وردت أصـدرتهـا) (تثوب فتأتى من تحيت ومن عل) :

وفى حديث الشنفرى عن ليلة النحس وما جرى فيها شواهد إبداع تتجلى فى دقة تعبيره وبراعة تصويره وقوة معانيه وجودة صياغته إذ يقول :

وليلة نحس يصطلى القوس ربها وأقطعه اللاتى بهـــــــا يتنبل
دعست على بغش وغطش وصحبتي سعـار وإرزبز ووجـرو أفـكل
فأيمت نسوانـا وأيتمت إلدة وعدت كما أبدأت والليل أليل
فأصبح عنى بالغميصاء جالسا فريقـان مسئـول وآخر يسأل
فقالوا : لقد هرت بليل كلا بنا فقلنا : أذئب عس أم عس فرعل؟

---

(١) الأهدأ : الشديد الثبات يعنى جنبه ـ تنبيه : تبعده ـ سناسن : جروف فقار الظهر وهى مغارز رءوس الاضلاع وقحل جمع قاحل وهو اليابس الجاف أعدل منحوضا : اتوسد ذراعا قليلة اللحم ـ الفصوص : فواصل عظامه والكعاب جمع كعب وهو شيء يلعب به ودحاها : بسطها ومثل جمع مائلة اى منتصبة قائمة ـ عقيرته : نفسه وجثته وحم : قدر ـ حثاثا : مسرعة

فلم يك إلا نبـــاة ثم هو مت فقلنا : قطاة ربع أم ربـع أجدل
فان يك من جن لأبرح طارقا وان يك إنسا ماكها الإنس يفعل (١)

لقد بدأ الشاعر حديثه بوصف بالغ لشدة البرد التي قلبت ليلته إلى نحس شديد فهو يكنى عن ضراوة البرد وقسوة الزمهرير وفناء كل الوقود فى مقاومته بتقديم القوس طعما للنيران رغبة فى الاصطلاء بوهجها واكتساب الدفء من حرارتها .. وقد خرج في تلك الظروف القاسية فى إحدى غاراته الليلية غير حافل بذلك الجو العنيف وبصحبته سعار الجوع وإرزبز تتجمد الاطراف منه ووجر (خوف) وأفكل (رعدة) فأيم النساء ويتم الاولاد وعاد بما سلب وانتهب يواريه ظلام دامس وتحيط بأخباره حيرة مذهلة وارتياب بالغ وأسئلة تتردد واعتقاد راسخ بأن ما نزل بهم لا يقدر عليه إنسان من البشر ... (ماكها الإنس يفعل) ويتضمن . هذا التعبير تشبيها له بالجن والشياطين . وتأمل قوله (والليل أليل) ومايوحى به من شدة الظلمة وثباتها .

---

(١) رب القوس صاحبها ، الأقطع : جمع قطع وهو النصل الصغير العريض والقصير العريض السهم ويتنبل يختار النبال الصالحة ـ الدعس : الدوس والوطء والطعن والبغش : المطر الخفيف والغطش : لظلمة ـ السعار : حرارة الجوع ـ الإرزبز : البرد الذى يجمد الإنسان فى مكانه ـ الوجر : الخوف ـ الأفكل : الرعدة إلدة : أولاد كولدة ـ أبدأت : ابتدأت ـ أليل : ثابت الظلمة الغميصاء : موضع بنجد والجلس : اسم لنجد ـ هرير الكلاب : صوته دون القباح نبأة : صوت ـ هومت الكلاب : نامت بعد النباح ـ أجدل : صقر .

وهل سمعت تصوير الشدة الحر وعنف القيظ ووقدة الهاجرة أروع من قوله :

ويوم من الشعرى يذوب لوابه أفاعيه فى رمضـــائه تتململ

فقد جعل للحر لوابا ولعابا وهو ما يرى كأنه خيوط العنكبوت من الوهج والرهج كما عبر بتململ أفاعية على رمضائه من وقدة اللسع عن لهيبه وشدة حرارته ورهبته وما يحدثه في النفوس من إزعاج وفزع .... لكنه لم يأبه لهذا الحر اللافح وتعرض له بلا ساتر يحميه سوى ثوب ممزق وشعر ضاف ملبد تطيره الرياح عن أعطافه وهو شعر لم يعن به صاحبه غسلا وتمشيطا وتطييبا لأنه مشغول عنه بمغامراته وفتكاته :

نصبت له وجهى ولا كن دونه ولاستر إلا الاتحمى المرعبـــل
وضاف إذا ماهبت الريح طيرت لبائد عن أعطافه ما ترجـــل
بعيد بمس الدهن والفلى عهده له عبس عاف من الغسل محول (١)

تأمل قوله « نصبت له وجهى » وما يوحى به من الجرأة والتحدى والاستهانة وقوله « بعيد بمس الدهن والفلى عهده » كناية دقيقة عن خشونة حياته وشظف عيشه وإهماله لشعره دليل ذلك .

---

(١) لا كن دونه : لاساتر أى المكان الذى يستتر فيه ـ الإتحمى : ضرب من البرود والمرعبل : الرقيق الممزق ـ اللبائد : الشعر المتراكب بين الكتفين والأعطاف ـ ما ترجل ما تمشط وتسرح والعبس ما يتعلق بأليات الشاء وأذناب الإبل من الروث :

وما أبدع تشبيهه الوعول الملتفة حوله بالعذارى يرفلن فى سابغ الدمقس والحرير وما أروع وصفه لها بالاتئاد والثبات حوله تعبيراً عن إيلافها له وانعطافها نحوه حتى لكأنه واحد منها :

تزود الاراوى الصحم دونى كأنها عذارى عليهن الملاء المذيل
ويركدن بالآصال حولى كأننى من العصم أدفى ينتحى الكيح أعقل (١)

وهكذا تزهى الصور الادبية وتزدان الالوان البديعية فى هذه القصيدة الفطرية الناعمة بألحان الصحراء المرددة لأغاريد البادية فى فضائها الرحب الفسيح (٢) . . . كما تنتشر الحكمة خلال أبيات القصيدة وتتناثر لآلئها على لسانه فيكون لها الوقع العظيم ، والأثر الكبير وهى حكمة فطرية نابعة من الخبرة ووحى التجربة وممارسة أهوال الحياة ومواجهة صعابها من مثل قوله :

وفى الأرض منأى للكريم عن الاذى
وفيها لمن خاف القلى متعزل

وقوله :

لعمرك ما بالارض ضيق على امرىء
سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل

---

١) الأراوى جمع أروية أنثى الوعول البرية ـ الصحم . السود المائلة إلى الصفرة ـ يركدن : يثبتن والأصيل قبيل الغروب والكيح : عرض الجبل والاعقل : المتنع فى الجبل العالى .

٢) قطوف من ثمار الادب ص ١٣٨ .

وناحية أخرى لا يفوتنى أن أشير إليها فى مجال الحديث عن الملامح المميزة والخصائص الفنية للامية العرب ، وأعنى بهـا الظاهرة القصصية والعنصر الحكائى ، هذه الظاهرة الملحوظة فى شعر الصعاليك بشكل عام ...

ولامية العرب إنمـا هى تسجيل لحيـاة حافلة بالمواقف الصعبة والأحـداث المثـيرة التي تصلـح مادة طيبة للفن القصصى : ففيهـا المغامرات الجريئة والصراع المرير وأخبـار العـدو والفرار والـترصد والترقب وتحـين الفرص والتشرد فى أرجاء الصحراء مع الطيور والوحوش والأشباح ... إلى غير ذلك من مظاهر حياة شاعرنا الصعلوك التى تحوى عناصر أساسية للفن القصصى من الإثارة والتشويق وتسلسل الحوادث حتى تصل إلى غايتها الطبيعية المحتومة ..

وهذا يتمشى مع ما ذكرته سابقا من أن شعر الصعاليك أكثره مقطوعات وقصائد تقبل العناوين القصصية المثـيرة ممـا يمكن أن يندرج فى مجموعة خاصة يصح أن نطلق عليها « أقاصيص صعلكة » أو « مغامرات الصعاليك » [1] الأمر الذى يجعـل من الشعراء الصعاليك بحق « روادا للقصة الشعرية فى الأدب العربى » خلافا للمتعارف عليه من أن امرأ القيس هو أو من اصطنـع القصة فى شعره ..

---

(١) الشعراء الصعاليك يوسف خليف ص ٢٨٧ .

وهكذا حلق الشنفرى بلاميته فى آفاق عليا من الفن الشعرى الأصيل والوميض الأدبى البراق ، والتعبير البلاغى المثير فاكتسب مكانة سامية وبلغ منزلة مرموقة ليس بين الشعراء الصعاليك فحسب بل بين كل الشعراء ، وتبوأت لاميته مكانة مرموقه فى عالم الأدب ، ودنيا البيان ، فنالت الشهرة ، وكتب لها الخلود . . . .

لامية العرب . أهميتها وسر خلودها :

لا أدل على أهمية لامية العرب من تعرض أكثر من لغوى لشرحها والتعليق عليها أمثال : المبرد ، وثعلب ، والتبريزى ، والزمخشرى والعكبرى . ويحيى الحلبي الغسانى ، والزوزنى والقشوانى ، وابن أكرم ، وابن زاكور ، وعطاء الله المصرى ، والسويدى ، والعبيدى والحميرى . . . وغيرهم .

كما حرصت على الاستشهاد بأبياتها والاهتمام بها أمهات مصادر الأدب العربى كالمفضليات وكتاب الوحوش للأصمعى وحماسة أبى تمام والحيوان للجاحظ ، والشعر الشعراء لابن قتيبة ، ونقد الشعر لقدامة ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، ومروج الذهب للمسعودى . والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى والأمالى لأبى على القالى ، والمزهر للسيوطى والموازنة بين أبى تمام والبحترى للامدى والصحاح للجوهرى ، والاتباع والمزاوجة لأحمد بن فارس . وجمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى ، واللزوميات لأبى العلاء المعرى ، والمخصص لابن سيده ، ومحاضـــرات الأدباء للراغب الأصبهانى ، ومختارات ابن الشجرى . . . وغيرها . .

إن السر فى تلك العناية الفريدة التى لقيتها هذه اللامية حتى ألفت فيها تلك الشروح الكثيرة المتعددة وحتى أقبل الغربيون على ترجمتها إلى لغاتهم أن هذه اللامية تضمنت مادة لغوية قيمة . وأسلوبا فنيا مميزا ، وتصويرا دقيقا لحياة الاعراب ومجتمع الصعاليك .

ومن هنا أقبل الشعراء العرب عليها ، واشتدت بينهم المنافسة ، وظفر التراث بما جادت به الهمم ، وفاضت به القريحة ، وصنعه الإبداع وحققه

الفكر المتفتح ، والرؤية الثاقبة ، والنظر اللماح .

وكما اهتم العلماء واللغويون والرواة والادباء بشرحها والاستشهاد بها فقد حظيت باهتمام ذوى الثقافة والمعرفة وطلاب الادب الراقي ولقد ذكر بعض الناس حديثا نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم نصه :

« علموا أولادكم لامية العرب فان فيها القناعة والشجاعة » (١) ومهما كان الرأى فى صحة هذا الحديث فان فيه دلالة على أهمية هذه اللامية وقيمتها ومكانتها ومنزلتها السامية ونظرا لهـذه القيمة الفنية للامية العرب فقد أصبحت قصيدة عالمية خالدة استحقت من علماء اللغات السامية من الغربيين هذه العناية التي صرفت فى دراستها وإدراك جمالها فمنـذ أن نشرها « دى ساسى » de Sacy واتجهت إليها أنظار كثيرين من المستشرقين أمثـال « فرنل » Freanel و « فيل » Weil و « كوزجارتن » Kosegarten و « رويس » Beuss و « ريكرب » Riickert و « همـــر جشتال » Hamner Purgotall و « الفارت » Ahlwordt و « فرين » Fröhn و « ب بليا » P. pallia وغيرهم من أولئك الذين عنوا بها عناية خاصة ونقلوها نظما ونثرا إلى مختلف اللغات الاوربية ولم تقف عناية الغرب بهذه اللامية عند هذا الحد بل نرى كثيرين من علمائه أخذ وايتسابتون إلى اقتناء مخطوطاتها وسد حاجة الباحثين بتوفير نصوصها فأصبحنا لا نقرأ بحثا حولها إلا ونجد إشارة إلى نسخة أمثال « بترمان » Petermann و « شيرنجر »

---

(١) قطوف من ثمار الادب ص ٢٢ .

Sprenger ومكتبة جوتا أو ليدن أو باريس أو الفاتيكان أو أكسفورد وغـــيرها من دور الكتب الغربية وفي عام ١٨٦٤ رأى شيخ المستشرقين « تيودور نولدكه » أن الوقت قد حان لإعادة بحث هذه اللامية فانصرف إليها وقتا ثم خرج للعالم بكتاب حول الشعر الجاهلى عرض فيه للاراء المختلفة التى قيلت فى اللامية وناقشها ولم يقف أمر اللامية عند هذا الحد من العناية بل نجدها مع مرور الزمن تخطو خطوات واسعة في الأوساط الأدبية الغربية بفضل العناية التي وجهها رجال اللغات الساميه إلى الشعر الجاهلى ونشر كنوزه .

وبعد أن كانت العناية بهذه الآداب قاصرة على الأفراد إذ بها تغزو المجامع العلمية : فنجد مجمع « فينـا » ينشر دراسة لنولدكه فى خمس معلقات لزهير ولبيد وعمرو بن كلثوم وعنترة بن شداد والحارث ابن حلزة . . كما أصدر معلقتي امرىء القيس وطرفة عام ١٩١٣ م بعد مجهود عظيم صرفه جيجر وجنز وبينما كان المجمع العلمي فى فينا منصرفا إلى مثل هذا النوع من الأبحاث إذ بالمجمع البافارى ينشر فى عام ١٩١٤ م بميونخ بحثا يعتبر بحق من أحسن الأبحاث حول لامية العرب للمستشرق الألمانى « جورج يعقوب » George Jacob .

ولم يقدم العلامة « جورج » على هذا البحث إلا بعد أن مهد له بكتاب عن حياة البدو فى العصر الجاهلى ، وجمع مختلف المراجع التي تعرضت لهذه اللامية كما عنى عنا ية خاصة بنبات الشرق وحيوانه . . .

وهو فى بحثه يصب معلوماته كلها فى قالب علمى ممتع جميل . . .

لنستمع إليه يناقش فى لين ودعة الرأى الذى أجمع عليه شراح اللامية للفظ « سمع » الذى ورد فى قول الشنفرى :

فانى لولى الصبر أجتاب بزه على مثل قلب السمع والحزم أفعل

وقد ذكر الزمخشرى وابن زاكور وعطاء الله والمبرد أن السمع هو ولد الذئب من الضبع ... وخالفهم فى هذا المستشرق « جورج يعقوب » وقال :

« إن مثل هذا التزاوج لم يتم بين الذئب والضبع » وقد استعان لإثبات صحة هذا الرأى بحديقة حيوان « هلابرن » التي نجحت في تجربة التزاوج بين الذئب والثعلب وأخفقت فى تحقيق ما ذهب إليه شراح اللامية ... فالسمع حسب تقرير الرحالة وعلماء الحيوان هو حيوان يشبه الكلب وفى حجم الحمار إذا لم تصب الطلقة الأولى منه مقتلا تكونت عنده مناعة ضد الرصاص ، وهو يهاجم الإنسان ويضربه بمخلبه الأمامى فيبجر بطنه ويفترسه ومن شدة خطره وقوة بأسه لا يستطيع الفرد السير ليلا إلا فى صحبة قافلة ويطلق عليه علماء الحيوان اسم « ليكاون بيكتوس » وهو مشهور بقوة السمع حتى يضرب به المثل :

تراه حديد الطرف أبلج واضحا
أغر طويل الباع أسمع من سمع

وهكذا نمضى فى دراسة ممتعة على هذا النسق العالى من البحث المستفيض والنظر الدقيق والرأى المبدع اللماح ...

* * * *

وهكذا فتحت لامية العرب آفاقا جليلة أمام الأدباء والباحثين علما وأدبا وفنا وإبداعا وطرافة وبراعة ومع ذلك فلا زال طريق البحث طويلا . . . طويلا لا مندوحة عنه ولن نجد من دونه بديلا .

تحية القرن العشرين للشعراء الصعاليك أشراف الصعاليك فى العصر الجاهلى . . .

وتحية للشنفرى صاحب « لامية العرب » « لامية الروائع » التي كتبت له المجد وحظيت هى بالخلود . . .

* * * *

الخاتمة

هكذا ينتهى بنا المطاف مع « لامية العرب وشعر الصعاليك » فى دراسة أدبية تحليلية نقدية ألقيت فيها بعض الضوء على الحياة الجاهلية والعصبية القبلية وبينت أن هذه العصبية ظاهرة واضحة فى حياة العرب الجاهلية وقد أوجدتها وساعدت عليها هذه البيئة الصحراوية الخالية من الأسوار والحصون وأنواع الحماية ... وفى هذه البيئة البدوية الصحراوية بعادات أهلها وتقاليدهم وأخلاقهم وطباعهم نشأت البطولة والفتوة كما نشأت الصعلكة ونشأ الصعاليك .

وقد تناولت بتفصيل وإسهاب « الصعلكة » فى مفهومها ومعناها ونشأتها وفى مدلولها اللغوى واستعمالها الإجتماعى والادبى .. وقد ظهر بوضوح وجلاء أن الصعاليك فئة متميزة من البشر ألجأهم الفقر وأرغمتهم ظروف اجتماعية خاصة دفعتهم دفعا إلى اتخاذ منهج خاص قوامه الإغارة والغزو والنهب والسلب واللياذ بالجبال والشراد فى الصحراء معتزين بهذه الحياة حريصين على هذا المنهج قانعين بما تجلبه لهم هجماتهم وفتكاتهم من أسلاب وأموال يقتسمونها فيما بينهم ويوزعون منها على الفقراء والضعاف والمرضى والمسنين والمحرومين وهم فى ذلك يؤمنون إيمانا عميقا بأن هذا الاغتصاب حق لهم لا يبغون من ورائه سوى العيش فى مجتمع انحرفت فيه موازين العدالة واختل التوازن الاقتصادى

والصعاليك باعتبارهم طائفة خاصة فى البيئة الجاهلية لها حياتها ولها عالمها لهم كذلك أدب خاص ولهم شعر يعبر عن مشاعرهم وميولهم وأحاسيسهم

ويصف أحوالهم وأخلاقهم وطباعهم ويصور المواقف المهولة التى يتعرضون لها والظروف الصعبة التي تصادفهم والعوارض التى تنتابهم .

وقد تناول شعر الصعاليك موضوعات شتي تتعلق بالصعلكة ومبادئها واتجاهاتها وتقاليدها وأحداثها .. وكان لابد أن يظهر فى هـــذا الشعر الصعلوكي حديث التشرد والضياع والفقر والبؤس والاسى والالم والحيرة والقلق ومظاهر التحدى والصراع وما يتبع ذلك من تلويح بالتهديد والوعيد وحديث عن رفاق السلاح وما يتحلون به من شجاعة وبطولة . ونجدة وحمية ، وشهامة واستبسال ، وقدراتهم العجيبة على الكر والفروسرعة العدو وبراعة المروق وحيوية الحركة ، وما يدور على ألسنتهم من مصطلحات وإشارات ورموز ، وحديث عن الخيول والجياد بأسمائها وصفاتها واحتقار سرعتها بجانب عدوهم وعن الوحوش فى فلواتها وصحبتها لهم وحنينهم إليهـا . وانعطافهم نحوها

وبالتتبع الواعى لشعر الصعاليك ، وبالدراسة المتأنية الدقيقة أمكن حصر مجموعة من الخصائص الفنية والملامح المميزة لهذا الشعر الصعلوكي ... فهو شعر مقطوعات قصيرة تبتدىء بالبيتين وقد تنتهي إلى عشرين بيتا ..

و و شعر متحرر من افتتاحيات النسيب والوقوف على الأطلال وبكاء الديار ، وبذلك تحققت له وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسى بحيث يكون بالإمكان وضع عنوان خاص لكل مقطوعة ينبىء عن مضمونها ومحتواها .. وهو شعر الواقعية المرتبط بالحياة الخاصة بهم بكل ما فيها وما لها وما عليها وفى شتى جوانبها ومختلف نواحيها فهى بذلك تعد مادة حية لموضوعاتهم مع الابتعاد عن الإمعان فى الخيال والحرص على الواقع المشاهد بغير مبالغة أو

إسراف والالتزام بالدقة فى التعبير والصراحة فى التناول والصدق فى الأداء .... وهو شعر يعتمد على السرعة الفنية بما فيها من حيوية وتدفق وتتابع إيقاع وسلاسة نبض ... وهو شعر تبرز فيه النزعة القصصية والميل إلى الحكاية لدرجة يمكن معها القول بأن كل مقطوعة جديرة بأن توضع تحت عنوان قصصى مثير حيث تتجلى فيها غرابة الحدث وإثارته ، وبراعة التحليل النفسى ودقته ، وجودة التصوير وروعته ، وقوة التعبير وسلاسته ....

وهو شعر تتضح فيه الخصائص اللغوية للشعر الصعلوكي فلغة الشعراء الصعاليك أقرب إلى الفطرة وأصدق تمثيل للغة العربية فى بيئاتها ومنابعها الأصيلة بما تحويه من مادة لغوية ذاخرة ، كما أن لغتهم أكثر احتواء على الغريب الشاق المحوج إلى المعاجم المطولة لياذا بها واحتماء من هذه الوحشية البدوية فى شواردها وأوابدها ... وهو شعر تتضح فيه بحق ملامح الشخصيه الفنية للشعراء الصعاليك والتحلل من السمات القبلية ومن روح الانتماء إلى الأهل والعشيرة ، وبروز عنصر الاعتزاز البالغ بالرفاق الصعاليك محترفى المغامرة والفتك والانقضاض والسلب هواة الشراد فى الصحراء والكهوف والجبال .

ومن أشهر هؤلاء الشعراء الصعاليك : عروة بن الورد وتأبط شرا ، والشنفرى والسليك بن السلكة وقيس ابن الحدادية وأبو الطمحان القينى ، وأبو خراش الهذلى وصخر الغى وعمرو بن براقة الهمدانى وعمرو ذوالكلب والأعلم الهذلى والأحيمر السعدى وفضالة بن شريك ... وإذا كان عروة ابن الورد يعد من أشرف الصعاليك الذين يعيشون لغيرهم أكثر مما يعيشون

لا نفسهم فان (الشنفرى) من بين هؤلاء الصعاليك يعد شخصية متميزة بملامحها البدوية وطباعها الصحراوية وغلظتها وخشونتها وبأسها وفتكها وشجاعتها وجرأتها .. وإن له لشعراً رائقا فى الحماسة والفخر يزهى بطبيعته وسجيته، وصدقه وأصالته وفخامته وجزالته ، وبراعة تصويره ومتانة أدائه وصفاء جوهره .. ولئن كان الزمن قد جنى على آثاره الادبية كما هو الشأن فى الادب الجاهلى عموما إلا أن بعض أشعاره قد أفلتته عوادى الزمن ومن أشهره «لامية العرب» التى انعقد رأى أكثر العلماء والرواة على أنها للشنفرى الازدى وأنها وليدة عبقرية بدوية جاهلية ليست مصنوعة ولا منحولة وليست أموية ولا عباسية وإنما هى صعلوكية لحما ودما .. وقد تتبعت كل ما أثير حولها من شكوك وظنون وأوهام فأبطلتها بالادلة والشواهد والحجج الدامغة المؤيدة لنسبتها إلى الشنفرى الازدى بكل اعتبار مستعينا على ذلك بالتعرف على أدق خصائصها الفنية وسماتها الاسلوبية والمعنوية وملامحها الصعلوكية وإشاراتها البرقية الخاطفة ..

وقد ظهر بوضوح وجلاء أن لامية الشنفرى حافلة بمواطن الجمال الأدبى، والإشعاعات الخلاقة والصور الجذابة والألوان الخلابة والخيـــال الخصب الإلهام المبدع والإشراق الروحي المتألق ... وقد عرضت لبعض هذه اللمحات المضيئة والومضات البراقة التى تطالعنا بجمالها وروعتها وتأخذنا بسحر بيانها وبديع صياغتها وتبهرنا بتدفقها وحيويتها فى إطار دراسة تحليلية نقدية واعية تأكد من خلالها أن الشنفرى قد حلق بلاميته فى آفاق عليا من الفن الشعرى الأصيل والتعبير البلاغى المثير وأن هذه اللامية قد تبوأت مكانة مرموقة فى عالم الأدب ودنيا البيان فنالت الشهرة وكتب لها الخلود وأقبل

علها اللغويون لشرحها والتعليق عليها أمثال المبرد وثعلب التبريزى والزمخشرى والعكبرى والزوزنى والنقشوانى وابن أكرم وابن زاكور وغيرهم كما حرصت على الاستشهاد بأبياتها والاهتمام بها أمهات مصادر الأدب العربى ، وأقبل المستشرقون على ترجمتها إلى لغاتهم وبذلك أصبحت « لامية العرب » قصيدة عالمية خالدة استحقت من علماء اللغات السامية من الغربيين هذه العناية التى صرفت فى دراستها وإدراك جمالها منذ نشرها (دى ساسى) واتجهت إليها أنظار كثير من المستشرقين ومنذ أن فتح « تيودور نولدكه » آفاقا رحبة للبحث فى الشعر الجاهلى ولامية العرب بل أن المجامع العلمية بدورها كان لها نشاط بارز وجهود كبيرة فى هذا المجال وبخاصة مجمع فيينا والمجمع الباغارى الذى قام بنشر بحث حول لامية العرب للعلامة جورج يعقوب المستشرق الألمانى فى عامى ١٩١٤ ١٩١٥م . ويعتبر بحق من أحسن الأبحاث التى قدمت فى هذا الموضوع .

وبعد فأرجو أن أكون قد وفيت الموضوع حقه أو بعض حقه .. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

دكتور عبد الله حسين على سليمان
المدرس / بكلية لدراسات الاسلامة والعربية
بنات ـ اسكندرية